٢٨٩

HARLEQUIN

روايات احلام

عندما يتيه الليل

كاثرين روس

www.elromancia.com
مرمورية

عندما يتيه الليل

لم تلفت نظر كالوم أي امرأة منذ وفاة زوجته وحصر اهتمامه بمزرعته وولديه، لكنه وافق مكرهاً على استخدام زاوي كمربية لطفليه خدمة لأبيها.

ما لم يضعه في الحسبان أن زاوي شابة جميلة وذكية، وأن تأثيرها عليه سيفوق قدرته على المقاومة.

لكن ما الذي ستفعله زاوي عندما تكتشف مخطط أبيها مع كالوم والمكيدة التي وقعت ضحيتها؟ وهل يمكن أن يعيش الحب عندما تصبح الثقة مفقودة؟

www.liilas.com

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١,٥ دينار	مصر: ٧ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-137-7

كاثرين روس

ولدت كاثرين روس في زامبيا حيث كان والداها يعيشان. درست في ايرلندا وانكلترا، وهي تعيش اليوم في قرية قرب بلاكبول - لانكشير. كاثرين إخصائية تجميل، لكن تبقى الكتابة حبها الأول. عندما كانت طفلة، كتبت قصص مغامرات وترأست تحرير مجلة مدرستها وهي في الثالثة عشرة من عمرها. وبعد عشر سنوات، كتبت قصة Designed with love التي اختارتها شركة Mills & Boon . إنها رومانسية من مواليد برج القوس، تهوى السفر إلى الأماكن الغريبة والفريدة.

www.liilas-romancia.com

١ ـ المتاعب تسير على قدمين

حاول «كالوم» ألا ينظر إلى ساعة الحائط في بهو الفندق الأنيق، لكنه لم يكن غافلاً عن أنه عما قريب سيغادره لكي يستقل قطاره.

ـ وهكذا، يا فرانسيس، ستوقع الاتفاقية أم لا؟

أبقى صوته مرحاً لا أثر فيه لصبره النافد. رفع الرجل بصره، ورغم خطوط الكبر على وجهه، كانت عيناه الزرقاوان حادتين نافذتين: «من المؤكد أنك غير مستعجل يا كالوم. أريد أن أعيد قراءة الورقة».

ـ حسناً، كما تشاء.

هز كالوم كتفيه. المسألة تتضمن مالاً كثيراً، ويمكنه أن يستقل القطار التالي.

ابتسم فرانسيس راضياً وأشار إلى النادلة: «هل يمكنك أن تحضري إبريق شاي آخر من فضلك».

ـ بكل تأكيد يا سيدي.

وابتسمت النادلة لكالوم، وطرفت عيناها إعجاباً بشعره الأسود وجسمه القوي الجميل.

وابتسم فرانسيس وهو يعود باهتمامه إلى الورقة بين يديه: «لا يمكنني أن أعمل دون إبريق شاي ثقيل».

منع كالوم نفسه من النقر بأصابعه على المنضدة. فقد كان هذا إبريقهما الثالث. أي لعبة جهنمية يلعبها فرانسيس برنارد؟ فهذه الاتفاقية لا تختلف عن تلك التي وقّعها فرانسيس السنة الماضية. وكبح زفرة. كانت سوبر

ماركت «برنارد» من أكبر السوبر ماركت والمزرعة بحاجة إلى اتفاقيته المربحة هذه، ولهذا عليه أن يتحلى بالصبر.

نظر فرانسيس إلى النادلة وهي تسكب لهما الشاي. كانت شقراء جذابة للغاية، وقد ظلت تبتسم لكالوم الذي لم يدرك تأثير وسامته البالغة فيها.

سأله فرانسيس فجأةً وهو يزيح الاتفاقية جانباً: «والآن كيف حال مزرعتك؟»

ـ بأحسن حال... كعهدك بها.

ـ أما زلت تعيش وحدك فيها؟

فقطب كالوم جبينه: «أنا لست وحدي، يا فرانسيس. إن لي ولدين، كما تعلم».

ـ أعني ألم تتزوج مرة أخرى، بعد؟

هز كالوم رأسه، فنظر إليه فرانسيس باهتمام: «إدارة تلك المزرعة وحدك ليس أمراً سهلاً. فكيف بوجود ولدين؟».

ـ لدي مدبرة منزل.

ـ هل تعمل بدوام كامل؟

قطب كالوم جبينه: «لا، بل نصف دوام».

ـ ألست بحاجة إلى شخص آخر؟

ـ الأمور، كما هي الآن، تسير على ما يرام. أمي تساعدني كثيراً منذ ماتت زوجتي.

كلامه عن والدته «إيلين» جعله ينظر إلى الساعة. سيغادر قطاره المحطة بعد أقل من ساعة. إذا لحق به فسيكون بإمكانه أن يحضر الولدين من المدرسة ويوفر على إيلين الرحلة، فهي تبدو متعبة مؤخراً.

قال فرانسيس: «هذا مؤسف، ولكن إذا كنت على استعداد لاستخدام فتاة أزكيها لك فسأضاعف لك الرقم الذي نتحدث عنه في هذه الاتفاقية».

منحه كالوم الآن انتباهه الكامل: «ما الأمر يا فرانسيس؟».

سكت فرانسيس برهة، ثم قال بصوت ثقيل وكأن الكلمات تزن طناً

بين شفتيه: «إنها ابنتي التي أسعى إلى توفير الاستقرار لها».

رفع كالوم حاجبيه الأسودين بسرعة، ثم التوت شفتيه: «أنت لست جاداً، أليس كذلك؟ توفر الاستقرار لها؟ ألا تدرك أننا في القرن الواحد والعشرين يا فرانسيس؟».

ـ لا أريد أن أمثل دور الأب المستبد يا كالوم لكن «زاوي» فتاة متمردة على الدوام. إنها وحيدتي وهي في الثالثة والعشرين لكنها تحطم قلبي.

ـ آسف لسماع ذلك، لكنني لا أفهم ما علاقة هذا بي؟

ـ أريد أن أبعدها عن لندن مدة أسابيع قليلة فقط. وأرجو أن تساعدني في ذلك.

ـ أنا متعاطف معك يا فرانسيس، لكن لا أرى كيف يمكنني هذا. والحقيقة أنني لا أريد أن أشترك في مشاكل عائلية، وأنا إلى ذلك راضٍ عن اتفاقيتنا هذه كما هي.

ـ حسناً، عليّ أن أراجع اتفاقيتنا. امنحني مزيداً من الوقت ليراجعها المحاسبون لدي. ربما عدة أيام... أو أسابيع.

ـ آه، ما هذا يا فرانسيس؟ إنها اتفاقية السنة الماضية نفسها. هل هذا ابتزاز؟

ـ لا. بالتأكيد! كل ما في الأمر هو أنني أعرض عليك اتفاقية متبادلة.

ونظر إليه بعتب.

نظر كالوم الى الرجل متأملاً. لقد تعارفا منذ عدة سنوات في مؤتمر عن الزراعة. وبالرغم من الفرق بين عمريهما وخلفياتهما، انسجما معاً واستغرقا في حديث طويل عن فوائد ومضار الزراعة الحديثة وعالم البيع بأنواعه وبعد ذلك تدفقت الطلبات على كالوم مما ساعده على تطوير مزرعته.

إنه مدين للرجل بالكثير. وهو إلى ذلك يشعر نحوه بالإعجاب والاحترام. فقد كان فرانسيس مليونيراً عصامياً، ما زال يمسك بمقاليد إمبراطوريته محاولاً إدارتها بنفس اليد القوية الحاسمة التي اعتادها. وكان كالوم يعرفه دوماً غريب الأطوار، ولكن هذه... هذه سخافة واضحة.

www.elromancia.com

- لماذا تأتي إبنة مليونير لتعمل مدبرة منزل في مزرعة غير ذات شأن؟

- هي لا تعلم أنها تريد القيام بذلك... وهي لم تعترف لي قط بهذا. لكنني أدركت أنها تبحث عن شيء ما في حياتها... شيء جاد حقيقي، أبعد من تفاهات الحياة الاجتماعية التي تعيشها.

التوت شفتا كالوم بتهكم: «هل ستفضل قضاء الشتاء الكئيب في تلال «كمبريان» على قضائها في الإبحار بين جزر البحر الكاريبي؟».

أومأ فرانسيس: «لقد زارت جزر الكاريبي كثيراً».

ضاقت عينا كالوم: «أتراها مدمنة على المخدرات وما أشبه؟ هل تريد استغلال مزرعتي كمركز لإعادة التأهيل يا فرانك».

- لا، لا أبداً. ولكن أعترف بأن لدي سبباً يدفعني إلى إبعادها عن لندن، فهي متعلقة برجل غير مناسب.

هزّ كالوم رأسه: «فهمت، حسناً، لا تفكر فيّ يا فرانك. أنا آسف، ولكن هذا يفوق قدرتي على الاحتمال. ابنتك راشدة على ما أعتقد».

- ماتيو ديفاين رجل نصاب مخادع.

- وابنتك امرأة في الثالثة والعشرين، كبيرة بما يكفي لقيادة حياتها الخاصة ومواجهة أخطائها.

- لا بأس. سأضاعف المبلغ المعروض عليك ثلاث مرات.

شعر كالوم بضعف يتخلل عزيمته. إنه بحاجة حقاً الى هذا المال لأن لديه موظفين، كما أن المزرعة قد أتعبته مؤخراً. وعاد يسأله مرة أخرى:

- وما الذي يجعل ابنة مليونير معتادة على الإبحار الى الجزر الكاريبية، تأتي الى «كامبريان» كخادمة؟

- لأنها حالياً، تمرّ بإحدى مراحل التمرد التي تتملكها. وهو أمر ليس غريباً بالنسبة إليها. إنها لا تريد العيش في الشقة التي اشتريتها لها، ولا تريد أن تقبل الوظيفة التي أعددتها لها. وآخر تمرد قامت به هو الالتحاق بوكالة توظيف ترسلها الى الخارج لتكون بديلة لموظفة في إجازة أو مريضة ومثل هذه الأمور. وهذا لن يدوم طويلاً.

- وما أدراك أنه لن يدوم؟

فهز فرانسيس يده: «سبق أن قلت لك إنها في إحدى حالاتها التمردية. إنها الآن تعمل طاهية في مطعم في ميدان اكسفورد، وهذا بفضل المدرسة التي أرسلتها إليها في سويسرا. ولكنني حينذاك لم أكن أعلم، أن ذلك سيقودها الى المطابخ في لندن. فقد كانت آمالي فيها أكبر من ذلك بكثير. قبل ذلك كانت تقوم بدور مدبرة منزل نجم غنائي في منطقة «تشلسي» في لندن. إنها تقوم بتلك الأعمال العابثة ثم يتملكها السأم، فتعود فأعرض عليها زيادة مصروفها مرة أخرى لتتمكن من السفر في إجازة أخرى بالطائرة».

يا لها من طفلة أفسدها الدلال، كما فكّر كالوم مشمئزاً.

- ولكن الأمر هذه المرة، مختلف. لا أظنها ستعود. حسناً، ليس قبل أن تنهي لعبتها، فتتزوج ذلك الرجل غير المناسب، وعند ذلك أغرق أنا بالمشاكل.

فقال كالوم بحزم: «لو كنت مكانك لتركتها تفعل ما تريد».

هزّ فرانسيس كتفيه: «إنها إبنتي الوحيدة وأنا أحبها جداً. وهناك أمر آخر... مؤخراً اكتشفت أنني لن أعيش طويلاً لأحل هذه المشكلة...».

قطب كالوم: «ماذا تعني؟».

- بصراحة، أنا لست بخير. أيمكنك أن تتصور شعوري عندما أعلم أنني سأترك إبنتي بين براثن رجل قاسي مثل ماتيو ديفاين؟ التفكير في ذلك لا يحتمل. إنني أتضرع إليك يا كالوم، ليس بسبب علاقة العمل بيننا بل بصفتك صديق وأب. أرجوك ساعدني في هذا الأمر.

حدق كالوم إليه وقد صُدم حقاً بهذا الخبر. لم يكن الرجل المسكين كبيراً في السن، فهو لا يتجاوز الثانية والستين أو الخامسة والستين على الأكثر: «أنا أتعاطف معك، يا فرانسيس».

أومأ فرانسيس وهو يرشف الشاي: «ولكن هل ستساعدني؟».

- إذا كانت إبنتك متعلقة بذلك الرجل، فهي لن تقبل مغادرة لندن.

ابتسم فرانسيس: «صاحب الوكالة حيث تعمل، مدين لي ببعض

الخدمات. وإذا شاءت ابنتي أن تعمل معهم، فستقبل الوظيفة التي لديك في المزرعة... وعلى كل حال لن يدوم ذلك إلا عدة أسابيع فقط».

فقال كالوم مخمّناً: «وفي الوقت نفسه، ستحاول أنت أن تشتري ذلك الرجل غير المناسب؟».

- يمكنك أن تعتبر الأمر بهذا الشكل.

وعبث فرانسيس بالاتفاقية التي على المكتب: «ماذا تقول؟ هل سنعقد الصفقة؟».

***

صوت السيارة القادمة، جعل كالوم يطل من نافذة غرفة الجلوس. كانت شمس العصر تتحول للمغيب، والشفق يكسو التلال، ومنحدرات الوادي الأخضر يكسوها اللون الوردي. وإذ بسيارة حمراء رياضية تقف أمام المنزل.

سألته «أليس» بصوت صغير لاهث من خلفه: «هل جاءت، يا بابا؟».

- أظن ذلك.

قال الأب هذا وهو يرى قدماً أنيقة تخرج من العربة. أول ما لاحظه هو الكعب العالي، ثم الساق الطويلة «والطقم» الرصاصي الأنيق التفصيل الذي كان سيبدو مذهلاً في لندن، لكنه هنا في غير مكانه. ثم لاحظ شعرها الأشقر العسلي حيث بدت وكأنها أمضت الصباح كله عند مزين الشعر.

ما كان له أن يوافق على مشروع فرانسيس برنارد. إن لديه عملاً عليه أن يديره. وهذه ليست حضانة أطفال لعينة تديرها فتاة مخبولة.

أخذ كالوم ينظر إليها وعجبه يتزايد فقد رآها تخرج من صندوق السيارة عدة حقائب متماثلة من الجلد الثمين. وتزايد ذعره عندما تتابعت الحقائب من صندوق السيارة الصغير.

هل أتت هذه المرأة الى هنا بغرض العمل أم تظن نفسها في إجازة كتلك التي يقضيها أبناء الطبقة الثرية أحياناً في الأحياء الفقيرة لدواعي الإحسان؟ عليه أن يطلب منها الرحيل وأن يتصل بفرانسيس ويعتذر منه، ثم عاد

فتذكّر مرض وقلق ذلك الرجل فشعر بنفسه يتمزق.

- بابا، احملني. أريد أن أرى.

وكانت هذه أليس تجذبه بكمه.

نظر كالوم الى الطفلة ذات الخامسة ولاحظ، بذهن غائب، أنها ترتدي مريولها معكوساً من الامام الى الخلف.

سألته أليس وقد اتسعت عيناها الزرقاوان: «هل هي جميلة؟ هل هي مثل ماري بوبينز؟».

- ليس تماماً يا حبيبتي.

أجابها أبوها باسماً وهو يرفعها بين ذراعيه.

- لا أدري لماذا هي متحمسة بهذا الشكل.

تمتم «كايل» بذلك دون أن يحوّل عينيه عن التلفزيون وهو يتابع قائلاً: «لدينا الجدة «أيلين» وميلي ولسنا بحاجة الى شخص آخر».

نظر كالوم الى ابنه: «جدتك بحاجة الى بعض الراحة».

وجد نفسه يقول هذا ثم قطب وهو يفكر في أن ذلك قد يكون الحقيقة. ولا يدري إن كان خياله صوّر له أن الراحة ظهرت عليها حين أخبرها أنه سيحضر امرأة أخرى لتربيها عدة أسابيع.

رن جرس الباب فقفزوا جميعاً: «هيا، يا كايل. أطفىء التلفزيون. أريدكم في غاية الأدب أمام الضيفة».

تجاهله كايل، وبدلاً من ذلك أخذ يؤرجح ساقيه حتى كادت قدمه تصطدم بكأس عصير الليمون الموضوع على المنضدة بجانبه.

ورن جرس الباب مرة أخرى.

وفي الخارج، ضربت «زاوي» الأرض بقدمها بغيظ.

كان الجوّ قارساً. ما الذي يفعلونه في الداخل؟ سرعان ما نسيت البرد عندما انفتح الباب ووجدت نفسها تحدّق إلى وجه رجل بالغ الوسامة.

كان يرتدي بنطلون جينز وكنزة عالية الياقة، ويبدو في الثالثة أو الرابعة والثلاثين من العمر، طويلاً عريضاً ذا شعر كثيف أسود وعينين سوداوين.

كان مثالاً للرجولة مما جعل زاوي تشعر وكأنها دخلت الى فيلم . . .

سألته محاولة أن تتظاهر بالرزانة : «هل أنت كالوم لنغستون؟» .

أخذت عيناه تتفحصانها فزادتا من اضطراب مظهرها الهادىء .

ـ نعم .

ـ مرحباً ، أنا زاوي برنارد .

ـ لقد خمّنت ذلك .

تمتم بهذا وعيناه تتنقلان من شفتيها الحمراوين الى أظافرها المصبوغة . في الواقع لم يكن ثمة شك في جاذبيتها . . . بل هي أكثر جاذبية مما ينبغي لهدوء أي رجل . أما بالنسبة الى التنظيف ، ورعاية الطفلين وإدارة مطبخ المزرعة فمن الأفضل له أن يتصل بأمه متوسلاً إليها أن تعود حالاً .

ضاقت عيناها الخضراوان : «ألن تدعوني الى الدخول أم أنني لم أنجح في اختبار تجاوز عتبة الباب؟ لقد جئت من لندن في سيارتي واستحق فنجان شاي على الأقل» .

وتساءلت عما إذا تخيلت نبرة التهكم في صوته .

ـ آسف .

وتراجع ليسمح لها بالدخول . كانت النار تضطرم في المدفأة فتدفىء الغرفة . ورأت طفلين صغيرين جالسين على أريكة . طفلة صغيرة حلوة للغاية في الخامسة من عمرها ذات ضفيرتين شقراوين وعينين كبيرتين اتسعتا حماسة وصبي نكد المظهر في الثامنة ، ذو شعر أسود أشعث يرتدي ثوباً مدرسياً رمادي اللون .

ـ مرحباً .

وابتسمت زاوي لهما معاً . بادلتها البنت الصغيرة الابتسام لكن الصبي بقي يحدّق إليها صامتاً ، ثم قال فجأة متهماً : «برنابجي المفضل يفوتني بسببك» .

فقال له أبوه بهدوء : «كايل ساعدني على حمل حقائب الآنسة برنارد من فضلك» .

مضت لحظة ظنت فيها زاوي أن الطفل سيتجاهل نداء أبيه ، لكنه ما لبث أن نهض واقفاً ليساعده .

قالت لها الطفلة : «جئت لتعتني بنا ، أليس كذلك؟ الجدة «إيلين» تحتاج الى راحة . لأننا أتعبناها» .

ـ هل أتعبتماها حقاً . أنا واثقة من أنكما لم تقصدا ذلك .

ـ لا . لكن كايل صعب المراس نوعاً ما .

فقالت زاوي كاتمة ابتسامتها : «أحقاً؟» .

غضنت الطفلة أنفها باهتمام عميق : «أتعيشين في لندن؟»

ـ نعم . هذا صحيح .

ـ أتعرفين الملكة؟

ـ لا . لا أعرفها شخصياً .

ـ أليس ، دعي الآنسة برنارد وحدها . إنها متعبة لا تحتمل الاستجوابات الرسمية .

قال كالوم هذا وهو يُدخل الحقائب .

ابتسمت زاوي للفتاة الصغيرة : «لا مانع لدي ويمكنك أن تناديني زاوي» .

ـ سآخذك الى غرفتك .

وأخذ كالوم ينظر الى كايل وهو يناضل لإدخال حقيبة كبيرة لأدوات الزينة . لا بد أن لديها من الأصبغة ما يكفي لطلاء البيت . فكر في ذلك بجفاء وهو يمدّ يديه ليأخذها من الصبي .

أشار الى السلم ، فتبعته زاوي على سلم ضيق ملتوٍ ثم على طول ممر معتم . وكانت أليس وكايل في إثرهما .

شغفت زاوي حباً بهذا البيت الريفي . فقد كان قديماً للغاية ومليئاً بالمرايا . خشب الأرض كان يقرقع أثناء سيرهم وبدا غير مستوٍ ، فيما كانت الأبواب منخفضة ، فلاحظت أن كالوم أحنى رأسه وهو يدخل غرفة نومها .

كانت غرفة فسيحة تحتوي على سرير واسع خشبي وخزانة ثياب قاتمة

اللون. ومثل غرفة الجلوس، لاحظت جواً باهتاً من الجمال بحاجة الى لمسات حب تعيده الى مجده السابق.

قالت زاوي وهي تضع يدها على جهاز التدفئة: «المكان دافىء هنا».

ـ حسناً إننا في مطلع الربيع فقط وأنا أحب أن يكون البيت دافئاً. لكنني سأعدّله لأجلك.

ووضع أمتعتها على الأرض وسار باتجاه الجهاز بينما سارت زاوي الى النافذتين المفتوحتين.

كانت المناظر رائعة بما يكفي لرسمها. وقد تحاول ذلك أثناء وجودها هنا. فقد أحضرت معها كل عدة الرسم.

فتحت النافذة وهي تنظر الى كالوم باسمة: «يمكنك أن تزرع زنابق هنا».

لم يبادلها ابتسامتها من كل قلبه، فقد كان ينظر إليها بشيء من الحذر.

تمتمت تقول، محاولة بعث البهجة في الجوّ: «أنت تعيش في جزء رائع الجمال من العالم. كنت أحب دوماً بحيرة «ديستريكت». وكانت أمي تحضرني إلى هنا أثناء عطلتي الأسبوعية».

لاحظ كالوم أنها بدت حزينة للحظة. كانت بشرتها شاحبة جداً وعيناها الخضراوان الواسعتان بأهدابهما القاتمة الكثيفة، مبهمتين عاجزتين.

ثم ابتسمت له مرة أخرى، وامتلأت العينان الخضراوان بالثقة والعزيمة، فبدت له رؤيته السابقة لحزنها مجرد تصورات حمقاء. فهي امرأة لم تعرف مشكلة حقيقية في حياتها و «بابا» دوماً في خدمتها.

أدنى حقائبها من الخزانة، ثم سألها بأدب: «هل تحتاجين إلى شيء؟».

ـ لا أظن ذلك.

وجلست على حافة السرير فإذا هو صلب ففكرت في أنه يشبه قليلاً كالوم لنغستون. الحقيقة أنها لم تتعوّد ألا يبادلها الرجال الابتسام. وعادة ترى دوماً إعجاب أي رجل ينظر إليها. ولكن كالوم ينظر إليها وكأنها

مخلوق هبط من الفضاء الخارجي. إن لديه قامة رائعة! وأخذت تنظر طويلاً إلى كتفيه العريضتين، قبل أن تهبط ببصرها إلى خصره الضامر الرشيق.

حوّلت انتباهها إلى الولدين اللذين وقفا بجانب الباب ينظران إليها. بدت أليس طفلة حبيبة، أما كايل فبدا شبيهاً بأبيه قليلاً. فهو حذر وربما عدائي. وعندما نظرت إليه قال: «ستصل جدتي حالاً».

فقالت ببشاشة: «نعم، وأنا فقط أسدّ مكانها أليس كذلك؟ سيكون عليكما أن تساعداني وتخبراني بما عليّ أن أفعل».

نظر إليها كايل دون مودة، فيما أجاب كالوم عنهما: «سنراجع منهاج عملك بعد أن ترتاحي وتتعشي».

ثم سار نحو الباب عندما تعالى جرس الهاتف في الطابق الأسفل فخرج ممسكاً بيد كايل: «هيا بنا أنتما الإثنين، ولندعها ترتاح».

لكن أليس بقيت وعيناها واسعتان تنظران.

ناداها أبوها: «أليس».

لكنها لم تسرع في الإجابة، بل سألت زاوي سؤالاً بالغ الأهمية وكأن مستقبل زاوي يتوقف على الجواب: «أتحبين باربي؟».

أجابت زاوي برزانة: «أحبها جداً».

ابتسمت أليس: «وأنا أيضاً أحبها».

وقفت زاوي وتقدمت من إحدى حقائبها تفتحها، ثم فتحت الخزانة، فوجدت فيها عدة أثواب نسائية معلقة. قالت أليس بنعومة: «إنها لأمي، لكن الخزانة التي بجانبها خالية».

نظرت زاوي الى الثياب المعلقة قبل أن تغلق الباب بسرعة. لقد أخبرها رئيسها أن كالوم أرمل، وتساءلت منذ متى ماتت زوجته. فمن المحزن أن تبقى ملابسها معلقة في الخزائن.

أخذت تعلق ملابسها في الخزانة الخالية.

ـ ما هذا يا زاوي؟

التفتت زاوي فوجدت الصغيرة جاثمة على ركبتيها وبداها بجانب

حقيبة أدوات الزينة التي وضعت فيها أدوات الرسم، فأجابت: «إنه صندوق الرسم. أنا أحب الرسم في أوقات فراغي».

- وأنا أيضاً أحب الرسم.

وقبل أن تتمكن زاوي من منعها، فتحت الطفلة أحد أنابيب الدهان فلوّث اللون القرمزي أصابعها.

نظرت أليس الى زاوي والذعر على وجهها. فأسرعت هذه تطمئنها: «لا بأس، سيذهب هذا بالغسيل».

وقررت أن تبقي الصندوق مغلقاً في المستقبل.

- تعالي أريني أين الحمام وسأساعدك في غسل يدك.

كان الحمام مترفاً للغاية، يعود الى العهد الفيكتوري.

سألتها زاوي عندما سارتا عائدتين الى الممرّ: «أين تنامين يا أليس؟».

ففتحت أليس باباً آخر: «هذه هي غرفتي».

كانت غرفة الطفلة دافئة جذابة، يغطي السرير غطاء جميلاً مؤلفاً من رقع مختلفة الألوان.

- وغرفة كايل هناك.

وأخذت الطفلة تلعب دور الدليل بسعادة ممسكة بيد زاوي تدخلها الغرفة التي كانت تماثل غرفتها.

ولاحظت زاوي الصور الفوتوغرافية بجانب السرير، فتقدمت تنظر إليها عن قرب. كانت كلها تمثل الطفلين وهما أصغر سناً، ومعهما امرأة جذابة ذات شعر أسود طويل. وقالت أليس بزهو: «هذه هي أمي».

- نعم، هذا ما ظننته. إنها جميلة جداً.

- إنها في الجنة الآن.

قالت أليس هذا بلهجة تقرير واقع.

شعرت زاوي بطعنة حزن وهي تتأمل المرأة ذات العينين الزرقاوين الضاحكتين والشعر الذي يعبث به الهواء وذراعاها تحتضنان ولديها.

- وهنا ينام بابا.

وقبل أن تعي زاوي ما تفعل، جرّتها الطفلة إلى غرفة واقعة قبالة غرفتها بالضبط.

رأت على منضدة بجانب السرير الضخم ذي الأعمدة، كومة من الكتب، ومكتب عليه مصباح أمام نافذة، وعليه أوراق حسابات.

- ماالذي تفعلانه هنا؟

أتى صوت كالوم من خلفهما فدارت زاوي على عقبيها، ثم قالت باسمة: «آسفة، رأت أليس أن عليها أن تجعلني أتآلف مع غرف المنزل».

فقال كالوم وهو ما زال يمسك بالباب مفتوحاً لكي تخرج منه: «حسناً، دعينا لا نتآلف أكثر مما يجب».

رفعت زاوي حاجبيها: «آسفة».

ثم سارت نحو الباب بسرعة.

إن الرجل في الحقيقة يتجاوز الحد في الجد، وكأنها هي مهتمة بغرفته اللعينة تلك. ما كانت لتدخلها لولا أليس.

وحالما تركت الغرفة، أسرع كالوم الى مكتبه والتقط الرسائل الملقاة عليه. عندما رأى زاوي في الغرفة، ذعر فقد تذكر رسالة أبيها المفتوحة على المكتب حيث يخبره فرانسيس بسرور بأن رئيس زاوي حرص على أن يجعلها تقبل هذه الوظيفة المؤقتة بصفة مدبرة منزل وراعية لولديه. كما طلب منه فرانسيس أن يحاول إبقاء ابنته في المنزل الريفي أكثر من أسبوعين.

ما الذي يتوقعه الرجل منه؟ تساءل كالوم عن ذلك بضيق. وتمنى لو أنه لم يوافق قط على هذه المهزلة السخيفة منذ البداية.

فتح درجاً ووضع فيه الرسائل بعيداً عن النظر. أسبوعان هذا كل ما هو مستعد لمنحه لفرانسيس برنارد، فلديه شعور مقلق بأن زاوي ستجلب له إزعاجاً بالغاً.

***

٢ ـ طائر الليل

عندما نزلت زاوي الى الطابق الأسفل بعد ذلك بفترة قصيرة، كانت الساعة تقارب السادسة. وتبعث الأصوات من الممّر فوجدت نفسها في مطبخ فسيح ريفي الطراز.

وجدت كالوم يتحدث في الهاتف بينما جلست أليس الى المائدة تلوّن.

قال كالوم دون أي تمهيد وهو يضع السماعة: «علي أن أخرج، هل يمكنك أن تهتمي بعشاء الولدين وتشرفي على واجباتهما المدرسية؟».

أجابت زاوي بهدوء: «نعم، لكنني كنت أرجو أن نتمكن من تحديد واجباتي، ومنهاج الولدين الدراسي و...».

أجابها وهو يمسك بمفاتيحه ثم يتوجه الى معطفه المعلق بجانب الباب: «ساعة النوم هي الثامنة لأليس والثامنة والنصف لكايل، وسنتحدث عما قلته فيما بعد».

قفز كلب أسود من تحت المائدة وتبعه الى الباب ثم وقف كالوم فجأة: «يمكنك ترتيب الأمور، أليس كذلك؟».

فأجابت ساخطة: «طبعاً. فأنا طاهية ممتازة كما أن لدي دبلوماً في العناية بالطفل، لهذا السبب تدفع لي الراتب، أليس كذلك؟».

لماذا يبدو عليه التردد؟ تساءلت زاوي عن هذا وهي تضيف: «رئيسي أرسل إليك شهاداتي، أليس كذلك؟».

ـ نعم.

مضت لحظة من التردّد، ثم تنهد فهي تبدو كفؤة: «إن واجهتك أي

مشكلة فاتصلي بأمي التي تسكن قريباً من هنا».

سجل لها رقم هاتف أمه وقبّل قمة رأس أليس وتمتم: «كوني طيبة مع زاوي». ثم خرج.

سارت زاوي الى الباب الخلفي وأخذت تنظر إليه من خلال الزجاج وهو يسمح لكلبه بالقفز الى مؤخرة سيارته قبل أن يصعد إليها.

إلى أين هو ذاهب بهذه السرعة؟ كانت الشمس الآن تختفي خلف الجبال، صابغة السماء باللون الوردي، بينما لمعان الصقيع يغطي الأرض.

سألت زاوي أليس: «الى أين ذهب أبوك؟».

ـ الى العمل، الحملان الصغيرة على وشك أن تولد.

وكانت الطفلة تجيب دون أن ترفع بصرها عن عملها.

أخذت زاوي تنظر في أنحاء المطبخ الذي بدا غير منظم.

ستقوم بترتيبه، لكنها قبل ذلك ستطهو عشاء الطفلين. وسألتهما وهي تسير إلى الثلاجة تفتحها: «ماذا تريدان أن تأكلا الليلة؟».

سألتها أليس راجية: «مقانق وبطاطا مقلية؟».

سألتها زاوي ورأسها داخل الثلاجة: «ماذا تغديتما؟».

ـ بيتزا وبطاطا مقلية.

ـ ما رأيك إذن في فطيرة اللحم للعشاء؟ هذا إذا وجدت لحماً.

ـ آه، نعم.

وقفزت أليس عن كرسيها وهرعت نحو الثلاجة: «انظري هنا تجدين أشياء كثيرة».

ابتسمت زاوي للطفلة وهي تشكرها، وبدأت تخرج بعض الأغراض.

ثم سألت الطفلة وهي تنظر الى الفرن: «وأين أخوك؟».

ـ في الخارج.

ـ في الخارج؟ ولماذا في الخارج؟.

أسرعت زاوي الى الباب الخلفي. كان فناء المزرعة مظلماً وبارداً وربما مليئاً بأمكنة خطرة يمكن لصبي في الثامنة أن يتعرض فيها لحوادث خطرة.

www.elromancia.com

ـ ألم يره أبوك وهو يخرج؟

ـ لا أظن ذلك.

فتحت الباب الخلفي بعنف وأخذت تنادي بصوت مرتفع: «كايل، تعال، أرجوك أنا قلقة عليك».

لا جواب إلا خوار بقرة.

وكان الصقيع من الحدة بحيث أطبق على حلق زاوي وعادت تصيح ثانياً: «كايل، أرجوك».

خرج القمر من خلف غيمة فاستطاعت أن ترى الهياكل الداكنة للبيوت الخارجية ومخزن الغلال. ولكن لا أثر لكايل.

ـ هل أنت واثقة من أنه ليس في المنزل؟.

وأغلقت الباب وسارت الى الردهة لترى.

أين هو؟ أخذت تتساءل بعد تفتيش دقيق في كل غرفة، وقلبها يخفق عالياً. تصورت ثورة كالوم حين يعود فيجد أنها فقدت ابنه. رباه، إنها هنا منذ العصر فقط. وتذكرت تردده في الخروج، والطريقة التي نظر فيها إليها وكأنه كان يشعر في أعماقه بعدم كفاءتها. لكنها شخص كفؤ للغاية وهذا ليس ذنبها.

عادت تفتح الباب الخلفي: «كايل إذا لم تعد الى البيت في هذه اللحظة، فسيحدث إزعاج كبير».

وكان الصوت الوحيد زعيق مخيف من طير ما.

نظر كالوم الى ساعته ثم الى النعجة الميتة على الأرض. لقد كافحوا مدة ساعة تقريباً لإنقاذها، ولكن عبثاً. ثم حاولوا أن يجعلوا نعجة أخرى ترضع يتيمها، وفشلوا في هذا أيضاً. كان النهار سيئاً على وجه العموم. أخذ يفكر بصرامة وهو ينظر إلى الحملين وهما يدفعان أمهما الميتة. حملهما كالوم ووضعهما تحت سترته وهو يقول:

ـ لقد بذلنا جهدنا يا توم، ولا يمكننا عمل شيء أكثر من ذلك هنا.

هزّ توم رأسه بحزن: «نعم، مع الأسف».

ـ سأعود مع بزوغ الفجر.

وعاد كالوم أدراجه. ومن بعيد رأى أنوار البيت الريفي تتألق، أشبه بمنارة الترحيب. كان متعباً جائعاً، وقلقاً أيضاً على الطفلين. فهو لم يشأ أن يتركهما مع زاوي برنارد، نعم، أوراق التزكية ممتازة، وأبوها رجل مستقيم وهي تبدو جيدة لكنه لا يعرفها حقاً. لقد غاب عن البيت ساعتين ونصف.

سأله توم: «أتريد مني أن أبقى هنا؟».

نظر كالوم الى العامل شاكراً: «شكراً لكنك عملت ساعات كافية اليوم. أخرج وسأراك صباحاً».

وربت كالوم على ظهره قبل أن يفترقا.

كانت المزرعة ساكنة حين دخل كالوم من الباب الخلفي. لاحظ أن المطبخ منظم فتفوجىء إذ لم يتوقع حقاً أن تقوم زاوي بكل هذا.

وضع الحملين في السلة، ثم ذهب ليغسل يديه، قبل أن يصعد الى غرف النوم ليطمئن الى طفليه.

كانت أليس في سريرها مستغرقة في نومها، ودميتها في حضنها وضوء الليل الأحمر يضيء اللحاف الملوّن بالرقع.

سار الى الغرفة التالية ليرى ابنه فإذا المصباح بجانب السرير ما زال مضاءً وكايل مستلق على جانبه وظهره الى الباب.

ـ كايل؟

لم يتلق جواباً، ومع ذلك أحس الأب أن ابنه ليس نائماً: «كايل، هل كل شيء على ما يرام؟».

سأله برقة ولكنه لم يجب أيضاً، عندئذٍ غطاه كالوم جيداً ثم أطفأ النور. وتمتم وهو ينحني ليقبله: «أراك في الصباح».

وما إن خرج من الغرفة حتى كاد يصطدم بزاوي التي كانت تحمل سلة الغسيل. قالت بصوت هامس تقريباً: «لقد أجفلتني لم أسمعك وأنت تدخل».

أخذ السلة من يدها فلاحظ لباس كايل المدرسي فيها مغطى بالسخام.

www.elromancia.com

سألها بعفوية: «هل كان الطفلان على ما يرام معك؟»

رددت: «نعم، كانا ممتازين».

- يبدو على وجهك سخام أو ما شابه.

- أحقاً؟

ووضعت يدها على الخد الخطأ، فهز رأسه.

- إنها هنا.

ومال الى الامام يمسح البقعة عن خدّها الشاحب.

ولسبب ما أثارت فيها لمسته الاضطراب. وتطلعت عيناها لحظة بعينيه. كان قريباً جداً منها، من القرب بحيث رأت الظل الذهبي القاتم في عينيه، والخطوط الخفيفة بجانبيهما، خطوط الضحك، خطوط تظهر للناظر أنه عاش محباً محبوباً.

في هذه اللحظة شعرت بتوتر داخلي حاد ومشاعر لم تفهمها.

تراجع الى الخلف: «ما الذي كنت تفعلينه؟ تحفرين في الفحم؟».

تذكرت الذعر الذي تملكها حين لم تستطع العثور على كايل فبدّدت هذه الذكرى كل شيء آخر من ذهنها. لقد روّعها الصبي، بقيت تبحث عنه أكثر من ساعة ووجدته أخيراً في القبو مع الفحم. لقد تعمّد الاختباء منها. وحين سمعها تناديه لم يجب. وليجعل الأمور أسوأ استلقى على الأرض فغطاه السخام الأسود. وعندما سألته عن سبب تصرفه هذا لم يفعل شيئاً إلا النظر إليها بتمرد كئيب.

أهو مجرد عبث أطفال؟ أم أن ثمة ما هو أعمق وراء تصرفه؟ أخذت تتساءل الآن عما إذا كان عليها أن تخبر كالوم.

- زاوي؟

جعلها صوته تعود بانتباهها إليه.

فكرت في أنه من الأفضل عدم إخباره، فستتحدث مع الصبي بهدوء غداً.

- كنت أنظف المكان قليلاً.

وسارت نحو السلم: «طهوت مقانق وبطاطا مقلية للطفلين. أتريد أن أطهو لك بعضاً منها؟».

- لا، شكراً. سأحضر بنفسي شطيرة فيما بعد.

وتبعها الى الطابق الأسفل ثم الى المطبخ حيث وضعت سلة الغسيل على الأرض: «آسف لأنني تركتك وخرجت بتلك السرعة».

- لا بأس، أخبرتني أليس بأنك مشغول جداً هذه الأيام.

وجثمت تفرز الغسيل لتضعه في الغسالة. ثم نظرت بدهشة عندما ضربها حمل على مرفقها بخفة. وسألته: «هل هذه نتيجة مسائك؟».

- نعم، ولكنه لم يكن مساءاً ناجحاً لأن الأم ماتت.

وأخرج من الثلاجة وعاءً كبيراً يحوي حليباً: «وهذا يعني أن علينا أن نرضعهما بالزجاجة وندفئهما هنا الى حين».

واخذ ينظر إليها وهي تربت على الحيوان.

- هل أكلت شيئاً؟

- نعم، أكلت مع الطفلين.

ونهضت ووقفت تنظر إليه وهو يفرغ الحليب في زجاجتين.

- أتريد مني أن أفعل ذلك فيما تعدّ أنت شطيرة لنفسك؟

أقفل الزجاجتين: «شكراً».

- ربما بإمكانك أن تخبرني عن سبب طلبك العون للبيت من وكالة في لندن؟ أما من وكالة في «كيندال» أو «كارليزل»؟

كاد كالوم يسقط الزجاجة من يده وهو يناولها إياها، أتراها ارتابت بشيء؟

- لقد زكّى صديق وكالتك.

انصرفت عن الحديث وجلست الى المائدة حيث وضعت أحد الحملين على ركبتيها، لكنه تلوّى رافضاً.

ضحك كالوم وهو يرى نضالها معه، فتقدم نحوها وأمسك بالحمل وفتح فمه. وما إن ذاق هذا الحليب حتى أخذ يمصه بنهم ويسحبه من

www.elromancia.com

الزجاجة بسهولة. فقالت له:

- أراك معتاداً على هذا العمل.

- لدينا كل عام بعض الحملان لنرعاها. وبالمناسبة، أشكرك لترتيبك المطبخ. لم أتوقع أن تقومي بكل هذا العمل في أول ليلة لك هنا.

- لم يكن هناك مشكلة.

قالت هذا بمرح وهي تبتسم لنفسها. الحقيقة أنها بسبب عبث كايل، ركضت في الأنحاء كامرأة مسكونة لتنظم هذا المكان قبل أن يعود.

أخذت الريح تشتد في الخارج وصفرت حول البيت، مالئة الصمت بينهما.

رفعت بصرها إليه وتساءلت منذ متى ماتت زوجته.

- فهمت أنني جئت بديلة للجدة. هل هي مريضة؟

- إنها بحاجة فقط الى الراحة.

- ولديك مدبرة منزل، هذا ما قلته لي.

- نعم ميلي تأتي مرتين أسبوعياً. وبهذا يمكنك أن تأخذي يومين إجازة، إذا كان هذا يناسبك.

أومأت: «لن أمكث هنا طويلاً، والمفروض أن أنسجم معكم».

أفلتت خصلة من شعرها والتوت حول وجهها. جعلها هذا تبدو صغيرة جداً، كما لاحظ فجأة. وتساءل عما إذا كان الشاب الذي تراه في لندن من السوء كما وصفه أبوها. وسألها: «إذا احتجتك لمدة أطول، هل هذا ممكن؟».

ترددت: «حسناً، ربما لأيام قليلة. ولكن ليس أكثر من هذا، في الواقع قبلت هذا العمل خدمة لمارتن... صاحب الوكالة. لكنني أريد أن أكون في لندن في الأسبوع الثاني من نيسان».

- هل هذا لأجل موعد هام، أم لوظيفة أخرى؟

حاول أن يبدو عفوياً غير مهتم، فالأمر على كل حال لا يعنيه.

قالت باسمة: «هناك شيء من الإثنين».

وابتسمت ابتسامة جميلة، صادقة حارة أضاءت عينيها وجعلتهما تتألقان حياة وحماسة. ووجد نفسه يفكر في جمالها. ثم تمالك نفسه. كيف ينجذب الى امرأة هي مجرد فراشة اجتماعية؟

وقطب جبينه فهي لا تبدو أبداً كما وصفها أبوها.

أنهى الحمل زجاجته، فوضعته على الأرض وهي تقول: «ربما يمكنك أن تضع لي قائمة بما عليّ أن أقوم به هنا».

لقد أخذت هذه المرأة تختلف كلياً عن تلك التي كان يتوقعها: «قبل كل شيء أريد منك الاهتمام بالطفلين، تأخذينهما الى المدرسة ثم تنظمين البيت وتطهين لهما طعاماً. وكما ترين أنا مشغول بالعمل في المزرعة حالياً، ولهذا أكون شاكراً لك لو راقبتهما أثناء الليل أيضاً. وإذا شئت أن تخرجي في أي ليلة فأخبريني قبل ذلك بيوم لأحضر جليسة للأطفال».

- لا أظنني سأخرج في الليالي، فأنا لا أعرف أحداً هنا.

- قلت ذلك لتعلمي إنك لست سجينة هنا.

عندما قال هذا، تملكه شعور بالذنب. إذا حصل أبوها على ما يريد، فستبقى سجينة هنا لمدة أطول من مجرد أسابيع قليلة.

- سأذهب معك الى المدرسة في الصباح. علينا أن نغادر البيت في الثامنة والربع، أتريدين كوب شاي؟.

- لا، شكراً علي أن أنام فأنا متعبة حقاً.

وعندما وقفت، لاحظت أنه أخذ يُخرج زجاجات مياه ساخنة، فقالت ضاحكة: «الليالي باردة هنا؟».

- نعم، ولكن هذه لأجلهما.

وأشار إلى الحملين: «في الخزانة بطانية كهربائية إذا شئت».

- لا أظنني سأحتاجها. هل لديك مانع إذا استعملت هاتفك؟ سأدفع لك أجرة المكالمة، فهاتفي الخلوي غير شغّال هنا.

تقابلت عيناها بعينيه بثبات: «هل في هذا أي مشكلة؟».

تردد كالوم، أتراها ستتصل بصديقها غير المناسب؟ أبوها لن يرضى

عن ذلك. ولكنه لا يستطيع أن يرفض وإلا بدا في منتهى القسوة والخسة.

ثم قال: «نعم، ولكن لا تطيلي الكلام لأنني أنتظر مكالمة».

وعندما شرع في تحضير ما يأكله، استطاع أن يسمعها تطلب الرقم في الردهة.

- مرحباً، هذا أنا. كنت أفكر فيك. كيف الحال؟

وكان صوتها رقيقاً عذباً فصفق كالوم باب الخزانة. وسعل لكي تعلم أنه يسمعها.

لم يبد أنها اهتمت لذلك: «ما هذا الغباء؟ سأعود بعد أسبوعين. إنها مدة غير طويلة».

قطب كالوم جبينه، لأنه لم يشأ أن يسمع هذا.

ضحكت، كانت ضحكتها جذابة جداً وهذا يعني أنها كانت تتكلم مع صديق. وكانت تتمتم: «نعم أنا أنتظر ذلك بشوق بالغ».

ما الذي تنتظره بشوق؟ أخذ كالوم يتساءل، ثم جذب بعنف درج أدوات المائدة.

- لا يمكنني أن أتحدث الآن. سأتصل بك غداً، بالمناسبة... هل سمعت خبراً عن أبي؟

جمدت حركات كالوم.

- لا؟ كنت أتساءل فقط. إلى اللقاء.

أطلت عليه من الباب: «شكراً يا كالوم. الى اللقاء في الصباح».

- نعم، تصبحين على خير.

عندما أصبحت زاوي في غرفتها رأت الستائر تنتفخ بفعل الهواء من النافذة المفتوحة، وبسرعة تقدمت لتقفلها. ثم جلست الى منضدة الزينة تسرّح شعرها. كانت الغرفة باردة الآن، رفعت درجة جهاز التدفئة لكي تغير ملابسها، ثم اندست بين الأغطية وهي ترتجف برداً.

عندما اطفأت النور، أصبحت الغرفة حالكة الظلام. والصوت الوحيد الذي كانت تسمعه هو الريح الهادرة حول البيت. كانت معتادة على أنوار

الشوارع وضجة السير لذا بدا غريباً عليها ألا تسمع سوى صوت العوامل الطبيعية. وهكذا استلقت تحدق في الظلام. وإذا بصرخة من الخارج تجمّد الدم في العروق وتجعلها تنتصب جالسة. ما هذا؟ وساد صمت تبعته حركة الريح على النوافذ.

سمعت صوت خطوات على السلم، ثم قرقعة خشب الأرض.

اخترق ذلك الصوت الليل مرة أخرى وفي الوقت نفسه، سمعت ضربة قوية على النافذة، ثم أخذت الستائر ترفرف داخل الغرفة مصحوبة بهواء بارد. ألقت زاوي عنها أغطية السرير، ثم ركضت لترى ما يحدث.

- زاوي، هل أنت بخير. ما هذه الضجة؟

وكان هذا صوت كالوم يسألها من وراء باب غرفتها. قالت: «لا أدري ما حدث. استلقيت في الفراش وإذا بضجة غريبة، ثم انفتحت النافذة بعنف».

جالت نظراته فوقها، تتأمل شعرها الأشقر الطويل، والعينين الخضراوين الواسعتين، قبل أن تنتقل الى جمال قدّها الرشيق الذي بدا في قميص نومها الحريري الأسود. كانت جذابة الى أقصى حد.

- ها هو مرة أخرى. ما هو بحق الله؟

هتفت بذلك عندما جاءت صرخة أخرى من الجوّ.

فابتسم وقال بهدوء: «إنه بيرسي».

فسألته وهي تبتسم: «وما هو «بيرسي» هذا؟».

- إنه طاووس.

- طاووس؟

فقال بسخرية: «هو طير كبير ذو ذيل جميل. لا تخافي فهو ليس خطراً ولا يدخل أبداً الى غرف النساء».

شعرت بحماقتها الآن، وهذا ما جعلها تغضب. وقالت بصوت خشن غير ثابت: «كان عليك أن تحذرني من أن لديك وحوش خارج بيتك».

قال بجفاء: «هذا غير صحيح، لكنك في مزرعة».

www.elromancia.com

ضاقت عيناها: «أعلم أنني فتاة مدينة، يا كالوم، لكنني أعلم أن الطاووس ليس حيوان مزرعة».

ـ أحقاً تعلمين؟

وابتسم، ثم دخل الى غرفة نومها: «دعيني أجرب تثبيت النافذة».

أخذت تنظر إليه من عند العتبة، ولم تستطع منع نفسها من الشعور بالشماتة عندما أخذ يكافح بقدر ما كافحت لإغلاق النافذة.

ـ رجل قوي مثلك، ظننتك ستتمكن من إغلاقها بسهولة.

تمتمت بذلك متهكمة مستمتعة بهذه الفرصة السانحة لاستعادة كرامتها بعد موقفه الساخر منها منذ لحظات.

قال: «لقد سوّيت الخلل، إنها الريح».

وعاد بانتباهه إليها. أضاف ضاحكاً: «لا بأس، أنا لست ذلك الرجل القوي الذي كنت أظنه، والحقيقة أنني بحاجة الى أدوات أثبت بها هذه المشكلة بالذات».

قالت مازحة: «أعذار... أعذار...».

وهزت رأسها بمرح. فضحك ورفع يديه مستسلماً: «لا بأس، ما كان ينبغي أن أسخر منك».

ضحكت بدورها: «لا، ما كان ينبغي لك ذلك. إنها غلطة كبرى».

ـ حسناً، كل ما يمكنني أن أقول هو «آسف».

وفجأة، انتبهت إلى الطريقة التي كان ينظر فيها إليها وإلى ما تلبسه.

تقدم نحوها: «هل عقدنا هدنة إذن؟».

رأته جذاباً إلى حد لا يصدق. وقالت وهي تتراجع عنه قليلاً: «نعم، هدنة».

قال يقترح عليها ببساطة: «هذا حسن، وربما بإمكانك أن تنامي في غرفتي الليلة».

وعندما ارتفع حاجباها أضاف بابتسامة عريضة: «أعني أنه ربما من الأفضل أن نتبادل غرفتينا مؤقتاً».

شعرت بالدم يصعد الى خديها: «أنا أعرف ما عنيته». قالت هذا بسرعة، محاولة أن تصرف ذهنها عن الأفكار التي هاجمتها لتوّها.

ـ هيا بنا إذن، دعينا نرتب هذا الأمر.

وسار أمامها إلى غرفته التي كانت دافئة مغرية بعد برد غرفتها القارس. وقال مشيراً الى سريره: «الملاءات نظيفة. لقد نظفت ميلي كل ملاءات غرف النوم هذا الصباح».

وقفت عند الباب، وأخذت تنظر إليه وهو يفتح الأدراج ويأخذ بعض الملابس.

ـ ماذا بالنسبة إليك؟.

سألته هذا فجأة، شاعرة بالذنب. ربما هو مرهق، فقد بقي يعمل الى ساعة متأخرة، ولم يأكل جيداً: «لا يمكنك أن تنام في تلك الغرفة التي تعصف فيها الريح».

ـ أتدعينني للبقاء معك في هذه الغرفة؟.

وألقى عليها نظرة دعابة جانبية، ومرة أخرى أخذت أحاسيسها تدور. وحاولت جاهدة ألا تدع وجهها يحمرّ: «لا تكن غبياً».

قال ضاحكاً: «إذن، عليّ أن أنام هناك أليس كذلك؟ لا تقلقي، فقد اعتدت خشونة العيش، سأحاول أن أقفل النافذة بشيء ما، ثم أصلحها في الصباح».

ولم تتذكر زاوي أنها لم تحضر عباءة أو أياً من حاجاتها الشخصية من غرفتها الا بعد أن انغلق الباب خلفه. أوشكت أن تذهب خلفه، لكنها عادت فغيرت رأيها. يمكن لهذا أن يتأجل حتى الصباح.

اندست في الفراش الذي كان مريحاً جداً، أحسن بكثير من السرير الذي تركته. نظرت في أنحاء الغرفة، فوجدت الجدران بلون القشدة، والسجادة بنفس اللون. الألوان الوحيدة في الغرفة هي ألوان اللوحات المعلقة على الجدار، وكلها تمثل حدائق مليئة بالأزهار. لقد اختارتها امرأة دون شك.

التفتت فرأت الصورة المؤطرة للولدين بقرب السرير. لم تكن تربيتهما

www.elromancia.com

بالأمر السهل، بالنسبة الى كالوم. أخذت تفكر في ذلك وهي تطفئ النور.

أغمضت عينيها وفكرت في أبيها. لقد ربّاها وحده، وكانت هي في عمر كايل تقريباً عندما ماتت أمها.

لقد بذل أبوها جهده. وتنهدت وهي تفكر فيه. ليته يسمح لها بأن تعيش حياتها دون تدخّله الدائم. إنه لا يقبل فكرة أن تستقل وأن تعمل دون عون منه. وسيشوّش إلى الأبد علاقاتها، وهذا ما يقودها إلى الجنون. لقد دار بينهما جدال عنيف منذ أسبوعين، ولم يتوصلا حتى الآن الى تسوية مناسبة. وهذا السبب الذي دفعها للاتصال بزميلتها اليوم، آملة أن يكون قد اتصل بها. لكن زميلتها قالت إن لا خبر منه، وإن «ماتيو ديفاين» يقول لها بأن لا تقلق، وبأن كل شيء يسير بحسب الخطة الموضوعة.

كان ماتيو متعهد فنون وقد ساعدها في أول معرض لها. وكانت تأمل أن يكون هذا نقطة تحوّل لها فتتمكن فيما بعد من ترك العمل في وكالات الاستخدام المؤقت وتعمل بدوام كامل في رسومها.

لقد شجعها ماتيو كثيراً، وهي تخرج معه أحياناً، لكن علاقتهما لم تكن جادة، فهي أقرب الى صداقة عميقة. لكنها لم تخبر أباها بذلك. فقد تعمدت أن تتركه يعتقد أن علاقتها بماتيو أكثر من جادة، لأنها تعلم أن أباها إذا عرف بأمر المعرض الذي تخطط له، فسيرسل أصدقاءه وزملاءه في العمل ليشتروا لوحاتها وبهذا لن تعرف أبداً ما إذا كان النجاح حقيقياً.

ولكن بدلاً من أن تدع أباها يعتقد أنها جادة في علاقتها مع ماتيو، أما كان من الأفضل لها أن تخبره الحقيقة؟ ولكن أباها لم يكن مسروراً قط بشغفها بالفن، فهو يفضل أن تهتم بشركة الأسرة. وفي الحقيقة، كانت مصدر خيبة أمل كبرى لأبيها وهي آسفة لذلك. ولكنها حياتها هي، وهذه خطتها في الحياة.

إنها تحبّ أباها كثيراً، لكنها لا تطيق طرقه الاستبدادية. إن ردة فعله حين ظن أن علاقتها بماتيو جادة، كانت متوقعة، مما فجر الأمور بينهما.

إنها كبيرة بما يكفي لتقرر ما تريد وعليه أن يدرك ذلك، وهي لن

تتحدث إليه حتى يعتذر. وعندما تقرر أن تتزوج، فستختار زوجها بنفسها. لقد أخرستها الصدمة عندما أخبرها مرة أن في ذهنه شخصاً لها. وفكرت بغضب في أنها ستدعه الآن يقلق ويهتاج. ستدعه يظن أنها ستتزوج ماتيو ديفاين، فهذا ما يستحقه.

لن تتراجع، ولن تتصل به فهي تريد منه أن يعلم أنها الآن تعيش حياتها وفق شروطها هي.

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ حنين الماضي

كان الظلام حالكاً حين ألقى شيء ما بنفسه على السرير. انتصبت زاوي جالسة مشتتة الذهن، ولم تستطع أن تتذكر أين هي.

وارتفع صوت طفولي يقول: «حان وقت نهوضك من النوم، يا بابا. إنها الساعة السادسة والنصف».

تأوهت زاوي وهي تشعل المصباح: «إنه منتصف الليل».

بادلها النظر وجهان صغيران وبدا الذعر على كايل، بينما بدت أليس دهشة. وسألها الصبي غاضباً: «ما الذي تفعلينه في سرير أبي؟».

أجابت وهي تنظر إلى ساعتها: «تبادلنا الغرف. هل تستيقظون دوماً باكراً بهذا الشكل؟».

أجابت أليس بسعادة: «دوماً».

ذهب الطفلان راكضين ليريا أباهما، بينما أخرجت هي قدمها من تحت الأغطية بحذر. لم تكن قد استيقظت بعد، وبدا لها الاستيقاظ في مثل هذه الساعة إثماً بالغاً. سارت في الممر الى الحمام فقد كانت بحاجة الى دوش.

ناضلت لتفتح الدوش، وأفلحت أخيراً في الحصول على الماء الساخن فوقفت تحته بعد أن سوّت الستائر حولها.

شعرت بالبهجة وهي ترفع الى الخلف شعرها الأشقر الكثيف، ثم ترفع وجهها الى الماء المتدفق. وسرى الدفء في جسمها فرفعت ذراعيها تتمطى بغبطة وهي تتمتم: «رائع».

لبس كالوم بنطلون جينز وكنزة سميكة. كان سيلقي نظرة على الخلل في

النافذة قبل العمل، لكنه قبل ذلك، ذهب ليرى الولدين فهما هادئان كل الهدوء منذ تركا غرفته.

في منتصف الممّر سمع صوت دوش، ولاحظ أن باب الحمام موارب. دخل إليه وإذا به يجمد مكانه وهو يرى طيفاً تحت الدوش. دار ليذهب مرتبكاً لتطفله هذا، وقال بصوت مطاط وهو يغادر مكانه: «عليك أن تقفلي الباب في المرة القادمة».

دارت زاوي على عقبيها مصعوقة، فرأته من خلال الضباب المائي، وهو يغلق الباب خلفه.

جمدت مكانها وقلبها يخفق خجلاً. لم تقفل الباب خلفها! بماذا كانت تفكر؟ ولكنه بدون ريب سمع صوت الدوش، وكان عليه أن يقرع الباب.

أقفلت صنبور الماء ومدّت يدها تتناول منشفة بغضب، لكنها لم تجد واحدة. أخذت تنظر حولها وإذا بالذعر يتملكها وهي ترى المناشف على الأرض مبتلة جميعاً إلا منشفة يد صغيرة بجانب المغسلة.

شتمت بصوت منخفض وهي تخرج من تحت الدوش لتتناولها. حاولت أن تنشّف نفسها، لكن شعرها المبتل كان يقطر ماء، وكلما نشفت جسمها كان يعود فيبتل مرة أخرى. وتملكها الإحباط فتناولت قميص نومها ولبسته، فالتصق بجسدها، مسبباً لها شعوراً بالضيق.

فتحت باب الحمام وأخذت تتلصص ناظرة الى الممر، لم يكن هناك أحد، فركضت الى غرفتها، ثم أغلقت الباب خلفها. لكن شعورها بالارتياح كان قصير الأجل لأنها رأت كالوم يحاول أن يصلح النافذة.

نظر إليها وراح يتأمل مفاتنها البارزة من تحت قميص نومها المبتل.

ـ عليك أن تأخذي ملابسك وتنتقلي مؤقتاً الى غرفتي.

قال هذا من دون اهتمام وهو يعود الى عمله في النافذة.

كانت النافذة مفتوحة والغرفة قارسة الجو، فارتجفت بعنف ولم تشأ أن تناقشه، أجابت وهي تنظر حولها تبحث عن عباءتها: «لا بأس، وفي المرة القادمة حين تأتي الى الحمام رجاء، اقرع الباب».

قالت هذا بجمود بالغ، فأجاب: «آسف. لكنني ظننت أن أحد الطفلين ترك الدوش مفتوحاً. إنهما معتادان على هذا».

وجلس على عتبة النافذة ونظر إليها. كان في عينيه السوداوين هزل: «هنالك مناشف في الخزانة الموجودة في الممر».

لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة جمالها. عبس لهذا التفكير، وعاد بانتباهه للعمل الذي بين يديه. انها ابنة صديقه ولن يسمح لنفسه بالتفكير فيها بهذا الشكل بينما المفروض أن يبقيها آمنة من رجل غير مناسب، وعلى كل حال، هي ليست من النوع الذي يعجبه.

ولأنه كان واعياً الى طوافها في أنحاء الغرفة، جامعة حاجياتها، حاول أن يمنع نفسه من النظر إليها مرة أخرى. إنها فتاة ثريّة مرفهة، وسطحية مدللة.

رنا إليها بطرف عينيه فرآها ترتدي عباءتها وتبحث حولها عن شيء ما. لكنه لم يلتفت، وبعد لحظة سمعها تسأله: «ألم تر حزام عباءتي في مكان ما هنا».

ـ آسف، لم أره.

كانت واقفة بجانب صندوق العدّة، ورأى أصابع قدميها من تحت حاشية عباءتها الطويلة. كانت أظافرها مصبوغة بلون قرمزي. لعلها تمضي أيامها في صالونات التجميل، كما أخذ يحدث نفسه ثم قال غائب الذهن: «هل لك أن تناوليني المثقاب من الصندوق».

انحنت وبحثت عن الأداة ثم ناولته إياها. شكرها ثم أغلق النافذة بعنف.

ـ هل أنت واثق من أنك لم تر حزام عباءتي؟

ـ كل الثقة، هل لك أن تناوليني مفك البراغي؟

ـ ما الذي تريده، المفك العادي، أم المصلّب؟

سألها مقطباً: «وهل تعرفين الفرق؟».

ـ أتمزح؟

ضحك للغيظ الذي بدا في عينيها: «لا... بعد الليلة الماضية تعلمت درساً. سآخذ المصلّب».

ضحكت ووضعته في يده قبل أن تتابع تفتيشها.

حدّق كالوم الى مفك البراغي في يده. لا بدّ أن هناك من يمازحه. فكر في ذلك بجفاء وقد بدأ يعتقد أن المازح هو فرانسيس. كيف يمكن لفتاة مدللة أمضت حياتها بين صالونات التجميل، والجزر الكاريبية أن تعرف الفرق بين أنواع مفكات البراغي؟ ثم تجده على الفور؟

هنالك شيء غريب هنا. تُرى هل أرسلت له الوكالة فتاة غيرها؟

عادت فرأت إمارات الحيرة على وجهه: «ماذا حدث؟».

ـ لا شيء.

وقطب جبينه، لا لم يحصل على فتاة غيرها.

وكيف يحدث هذا؟ إنها زاوي برنارد. وقد أخبرته بذلك بنفسها.

ـ حسناً، لقد تخليت عن البحث عن الحزام. ربما نسيت أن أضعه في الحقيبة.

وارتجفت برداً وأحكمت لف القماش الحريري الرقيق حولها.

ـ الجوّ بارد هنا. الأفضل أن تذهبي الى الغرفة الأخرى.

وترك النافذة والأدوات من يده وتقدم نحوها يساعدها: «سأحمل بعض أشيائك معك الى هناك».

وأشار إلى كيس أدواتها والملابس التي تركتها على السرير.

ـ شكراً، ولكن يمكنني تدبّر أمري.

هذا الاهتمام المفاجيء والدفء في لهجته جعلاها تشعر بالارتباك. تراجعت مبتعدة عنه وإذا بها تتعثر بأذيال العباءة الطويلة، فمد يديه بحركة غريزية، يمسك بها.

شهقت للمفاجأة وتمسكت به لحظة، فشعرت بدفئه وسحره وهو يثبتها كي لا تقع.

تراجعت عنه وقد احمرّ وجهها وأخذ قلبها يخفق: «آسفة».

أجاب وما زالت يده حول خصرها: «لا بأس».

واشتبكت أعينهما.

وفجأة، لم يعد الارتباك سبب عسر التنفس الذي شعرت به.

شعرت بيديه تتحركان بخفة على كتفيها... وشعرت بقلبها يخفق بقوة بين ضلوعها. وإنتقلت عيناها الى وجهه الذي كان قريباً جداً منها.

لاحظ كيف جفّ شعرها ليشكّل خصلات متموجة حول وجهها. إنها امرأة فاتنة، بشرتها حريرية وجمالها صاعق، ولشدّ ما رغب في هذه اللحظات في ضمها إليه ومعانقتها بشغف ولكنه بدل ذلك ابتعد عنها مذعوراً.

ـ آسف.

تمتم بهذه الكلمة برقة، رافعاً يده عنها.

صعب عليها التفكير بشكل صائب. وشعرت بضيق في صدرها وبحرارة في قلبها.

ـ أنت محظوظة لأنك لم تتعثري بجانب السلم وإلا أذيت نفسك.

سببت لها هذه الرقة في لهجته اضطراباً بالغاً.

ـ نعم.

وسلخت عينيها عن عينيه، ثم تركته لكي تجمع حاجياتها.

ـ اسمحي لي.

وتقدم ليساعدها، لكنها كانت قد قامت بكل شيء.

ـ لا، أنا على ما يرام.

بدت وكأنها تترنم بهذه الكلمات بلهجة خافتة مشرقة.

ـ أصلح أنت النافذة، وسأراك في الطابق الأسفل.

أغلقت باب غرفتها خلفها ثم استندت إليه، ماذا حدث لها؟ لم تشعر قط بقلبها يخفق إلى هذه الدرجة بسبب عناق بسيط.

تشتتت أفكارها وأخذ قلبها يخفق بعنف، عنفت نفسها بغضب لسخافتها هذه. لقد تعثرت وأمسك بها فقط لا غير. نعم، إنه حقاً وسيم للغاية، ولكن هذا ليس سبباً لكي تذوب حالما يلمسها. إن عليها أن

تتماسك. وسارت الى الغرفة الأخرى فكادت تتعثر مرة أخرى، ثم أغلقت الباب خلفها بحزم وغضب.

وفي غرفتها حاول كالوم أن يركز انتباهه على العمل الذي بين يديه لكنه لم يستطع أن يصرف من ذهنه صورة جسد زاوي الجميل. ماذا كان يقول لنفسه منذ فترة...؟ إنها ليست من النوع الذي يعجبه؟ عبس وهو يحاول أن يستعيد حقيقة مشاعره تلك.

وماذا كان يقول أيضاً، إنها فتاة مترفة وسطحية ومدللة... وتمتم بجفاء: «هيا، يا فرانسيس. ماالذي يحدث هنا؟».

عندما نزل بعد ذلك بقليل، وجدها ترتدي بنطلون جينز وكنزة حمراء. وشعرها على شكل ذيل الحصان.

تساءل عما يجعلها تبدو بهذه الجاذبية حتى وهي في بنطلون جينز ولا أثر للزينة على وجهها.

ـ الفطور؟

سألته وهي تضع بيضة مقلية أمام كل من أليس وكايل اللذين كانا في كامل ملابسهما المدرسية.

ـ قهوة وخبز محمص لي فقط، ولا تتعبي نفسك سأحضر طعامي بنفسي.

عندما مرّ بجانب زاوي شمّ رائحة عطرها. نفس العطر الذي شمه على سريرها الليلة الماضية.

قالت أليس: «لقد سمّينا الحملين يا بابا. ذاك الذي أرجله سوداء اسمه «سكيب»، والآخر ذو الأرجل البيضاء اسمه «سكتيل»».

قطب الأب جبينه: «فكرة من هذه؟».

ابتسمت أليس: «فكرتنا أنا وزاوي. قالت زاوي إن بإمكاني أن أرضع أحدهما، فيما يرضع كايل الثاني قبل أن نذهب الى المدرسة».

لاحظ كالوم أن زاوي قد أعدت زجاجتين.

سكب قهوته ثم جلس الى مائدة المطبخ، وجلست زاوي قبالته ثم

www.elromancia.com

سألته: «هل أصلحت النافذة؟».

ـ لا، ثبّتها فقط. ولكنها تسمح بمرور تيار هواء. من الأفضل أن تبقي في غرفتي حتى أجد عاملاً يفحصها.

قالت ضاحكة: «ربما أنا أفحصها لأجلك».

رشف قهوته وقابل عينيها: «افعلي إذن ثم أخبريني كيف تعرف امرأة مثلك مثل هذه الأمور؟».

رفعت حاجبيها: ماذا تعني بقولك «امرأة مثلي»؟.

أخذ يبحث عن كلمات مهذبة، ثم قال: «أعني... أعني... تبدين بالغة الأناقة والتهذيب الاجتماعي...».

ـ شكراً، ولكن هذا لا يعني أنني أنثى لا أستطيع شيئاً.

ومرة أخرى تقابلت أعينهما... رباه إنها تجذبه، ودار رأسه. هذا لن ينفع أبداً. لقد وعد فرانسيس بأن يرعاها ولذا عليه أن يبقى بعيداً عنها.

شعرت زاوي بخفقات قلبها وهي تتذكر كيف أمسكها واحتضنها. حوّلت نظراتها عنه شاعرة فجأة بالخجل. ثم شعرت بالراحة تقريباً عندما حوّل الولدان انتباههما وهما يتجادلان حول أي حمل يريد كل واحد منهما أن يرضعه، عندما يغادران المائدة.

قال كالوم بصوت خافت: «أنا لست سعيداً بهذا، يا زاوي».

ـ بالنسبة لماذا؟.

وقطب جبينه وهو يومىء مشيراً الى الولدين.

وتمتم يقول: «هذه مزرعة للعمل وليس للحيوانات المدللة، إطلاقهما أسماء على الحملين ليست فكرة جيدة».

اتسعت عيناها الخضراوان: «فهمت ما تعنيه، آسفة فقد نسيت لأني نباتية».

بدا عليه الذهول وهزّ رأسه: «رباه! هذا كل ما نحتاجه! تغذية نباتية».

ـ عفواً، لم أفهم؟

هزّ رأسه: «لا شيء. آسف فأنت صاحبة مبدأ».

أومأت: «نعم، أنا كذلك».

سمعا قرعاً على الباب الخلفي، وقبل أن يفتح أحدهم الباب، انفتح وأطل منه رأس رجل في حوالى الثلاثين: «هل قاطعتكما؟».

ـ صباح الخير يا مارك، ادخل.

فدخل ثم ابتسم لزاوي: «مرحباً، لا أظننا تعارفنا من قبل».

قال له كالوم: «إنها زاوي، وهي تساعدنا مع الطفلين لعدة أسابيع وهذا مارك يا زاوي».

قال مارك وهو يصافحها: «أنا الطبيب البيطري هنا».

فكرت زاوي في أنه ليس سيء الشكل. كان طويلاً، حسن البنية، ورأت في عينيه السوداوين المرح والهزل.

أشار برأسه الى كالوم: «وأنا أيضاً أخوه».

قال كالوم بابتسامة عريضة: «أنا أحاول أن أخفي هذا فهو يُضرّ بصورتي بين الناس».

ـ حذار، وإلا فلن أترك ثانية كل أعمالي حالما تطلبني لأساعدك.

وسحب مارك كرسياً جلس عليه الى المائدة.

سألته زاوي مقاطعة مزاحهما: «أتريد قهوة أم شاياً؟».

ـ أي شيء في الإبريق.

قال مارك هذا وهو ينظر إليها تنهض وتسكب له القهوة. وعندما أدارت لهما ظهرها نظر الى أخيه مستفهماً وهو يشير بفمه دون كلام: «رائعة، أين وجدتها؟».

قالت أليس من جانبه ببراءة: «ماذا قلت يا عمي مارك؟».

ـ لا شيء يا عزيزتي كيف حالك اليوم؟

ـ بخير. أنظر، حصلنا على حملين رضيعين.

ـ هذا ما أراه.

تركز الحديث على المزرعة فترة بينما أزالت زاوي الأطباق عن المائدة. ثم نظر كالوم إلى ساعته: «حان وقت الذهاب الى المدرسة. أحضرا

أغراضكما يا أولاد».

وعندما بقي مارك مع زاوي لحظة وحدهما، سألها: «من أين أنت يا زاوي؟».

ـ من لندن.

ـ أحقاً؟

وبدت الدهشة على مارك: «بلدك بعيدة من هنا، أنت تحبين التغيير، أليس كذلك؟».

أجابت باسمة: «أنا هنا لعدة أسابيع فقط. أعمل في وكالة «تمبن»».

فقطب مارك جبينه: «في لندن؟»

ـ نعم.

ـ ولماذا استعان كالوم بوكالة في لندن؟

ـ يبدو أن صديقاً له قد زكانا عنده.

تردد مارك: «فهمت. أيمكننا أن نخرج معاً ذات مساء لأريك بعض مناطقنا الدافئة قبل أن ترحلي؟».

سمع كالوم هذا وهو يعود إليهما حاملاً مفاتيح سيارته، فقطب جبينه فآخر ما يريده هو أن يطلب أخوه موعداً من زاوي.

ـ إذا أردت نصيحتي يا زاوي فابقي بعيدة عن مناطقه الدافئة. فهو يعني حياته الخاصة أو سيارته الرياضية.

ـ لا، هذا ليس صحيحاً.

وضحك لها مارك غامزاً بعينيه فلم تعرف هي ما إذا كان جاداً أم لا.

بينما سار كالوم في الممر وأخذ ينادي طفليه.

ـ هيا بنا. ستتأخران إذا لم تنزلا.

وعندما أقبل الولدان هابطين السلم بصخب، سألها مارك: «ما قولك إذن؟».

ـ فيما بعد يا مارك، وشكراً لدعوتك.

ـ سأمسك بك في وقت لا يكون فيه أخي الأكبر موجوداً ليمنعك.

وضحك لها دون أن يبدو عليه أي انزعاج لرفضها.

غادروا المنزل معاً، وصعد الولدان الى مؤخرة اللاندروفر بينما جلست زاوي على المقعد بجانب كالوم وسارت السيارة ومارك يلوّح لهم بيده.

كانت السماء زرقاء متألقة، والحقول مبتلة بعد ليلة ممطرة. وكان الطفلان يتجادلان في الخلف فقال كالوم بسأم: «أسكتا».

وألقى نظرة جانبية على زاوي، ولكن لم يبد عليها أنها تستمع فقد بدت وكأن أفكارها بعيدة أميالاً. وتساءل عما إذا كانت تفكر في صديقها، لا بد أن علاقتها به جادة وإلا لما رفضت الخروج مع مارك. فالنساء عادة، يتهافتن على أخيه الأصغر.

وصلا الى الطريق وبدت لهم البحيرة التي كانت مياهها الهادئة تعكس صورة الجبال الشاهقة بجانبها.

صاح كايل: «هذا بيت الجدة إيلين».

نظرت زاوي حولها فرأت منزلاً حجرياً يتصاعد الدخان من مطبخه.

ثم انعطفوا الى اليسار متوجهين نحو القرية. بعد نصف ساعة أخرى أصبحوا في الشارع الرئيسي. ولاحظت زاوي أنها ضاحية صغيرة فيها شارع رئيسي واحد وأكواخ حجرية، وكنيسة ومكتب بريد. وكانت المدرسة في الطرف الآخر من القرية تحيط بها أسوار عالية.

وعندما قبله الولدان قبل أن يخرجا من السيارة، قال لهما: «الى اللقاء فيما بعد إذن».

تردد كايل قبل أن يلحق بأليس الى الرصيف: «هل ستأتي أنت لتأخذنا، يا بابا؟».

ـ لا، زاوي هي التي ستأتي.

عبس كايل وصفق الباب خلفه.

وسألت زاوي بهدوء: «أتراني ألحظ أثراً من الاستياء من إبنك؟».

ـ مع الأسف كايل لا يحب التغيير مهما كان صغيراً لكنه سيصبح على ما يرام بعد يوم أو يومين.

www.elromancia.com

أجابها كالوم بذلك وهو ينظر الى ولديه يصعدان درجات المدرسة الأمامية مع حشد من زملائهما، لكن زاوي لم تكن واثقة من قوله هذا.

كان هناك امرأة بعمر زاوي، جذابة سوداء الشعر، تلوّح بيدها لابنتها، فالتفتت نحوهما ورأت كالوم، فمالت نحوه تقول: «مرحباً، أيها الغريب!».

فنظر كالوم إليها من النافذة: «كيف حالك يا سالي؟».

ـ ليس سيئاً تماماً.

ونظرت متسائلة إلى زاوي.

ـ سالي، هذه زاوي. لقد جاءت لتساعدني على الاهتمام بالولدين لفترة.

قالت زاوي: «تسرني معرفتك».

فكان جواب المرأة ابتسامة فاترة عادت بعدها الى كالوم متجاهلة زاوي.

ـ هل ستذهب الى «حفلة أشفيلد الراقصة» السبت القادم؟

ـ أشك في ذلك، فإن مشاغلي كثيرة حالياً.

ـ أعرف ذلك. ولكن هدف الحفلة جيد وعلينا أن نسانده.

ـ نعم، حسناً سأشتري تذكرة سواء ذهبت أم لم أذهب.

ـ ليس هذا هو الموضوع.

ـ سأرى وضعي. الأفضل أن أذهب الآن سررت برؤيتك يا سالي.

ثم انطلق بسيارته وهو يقول لزاوي إن سالي هي أم صديقة لأليس.

ولكن غريزة زاوي حدثتها بأن شأن سالي معه أكثر من ذلك.

ـ إذا كنت تريدين شيئاً، تجدين المتجر خلف المنعطف التالي.

وأبطأ بالسيارة ليدعها تنظر الى الشارع الجانبي الصغير.

ثم انطلق نحو الطريق المؤدي الى البيت: «ولكن إذا كنت تريدين متجراً أكبر، فعليك أن تذهبي الى «ويندرمير»».

قالت: «لقد مضى سبعة عشر عاماً منذ ذهبت الى «ويندرمير» آخر مرة. كانت آخر عطلة قامت بها الأسرة قبل أن تموت أمي».

ـ سترين أنها لم تتغير كثيراً.

ـ لكنها جميلة أليس كذلك؟ ما زلت أتذكرها مع أنني كنت صغيرة جداً. كان أبي يملك يختاً في البحيرة.

وعندما فكرت في أبيها، شعرت بشيء من الحزن. ربما عليها أن تتصل به وتخرجه من تعاسته بأن تخبره بأنها لم تكن تنوي الزواج بماتيو ديفاين.

سألها كالوم برقة: «لم تكوني كبيرة حين ماتت أمك؟».

ـ كنت في الثامنة.

وترددت ثم نظرت إليه: «كم مضى على وفاة زوجتك؟».

ـ ثلاث سنوات.

غيّر سرعة السيارة. نظرت إليه ولاحظت التحفظ الذي كسا ملامحه الوسيمة، فقالت: «آسفة لم أقصد التطفل».

ـ لا بأس.

ـ فراق الأحبة صعب، أليس كذلك؟

نظر إليها عند ذاك، ورأى الحنان في عينيها: «ما زلت تفتقدين أمك، أليس كذلك؟».

ـ نعم، ما زلت أفتقدها حتى بعد مرور كل تلك السنوات.

ومن بعيد، استطاعت زاوي أن ترى البيت الريفي، إنه مبنى فسيح أبيض يبدو منسجماً تماماً مع جمال المنحدرات الجبلية الشاهقة الجرداء التي تحيط به. وكان يستر المنزل بستان فاكهة صغير، من ناحية واحدة.

قال كالوم مفكراً: «الفتاة بحاجة لأمها».

ـ نعم، وكذلك الصبي في الثامنة. وساورني إحساس بأن كايل يفتقد أمه بشكل كبير.

ـ إنه لا يكاد يتذكرها...

ثم سكت لحظة عاد بعدها يقول: «بل نعم، أنت على صواب تماماً، فهو يتذكرها».

ـ أنت لا تحب حقاً الحديث عن هذا الأمر، أليس كذلك؟

قالت له هذا وهي تراقب التعبير الغامض الذي مرّ بملامحه الوسيمة.

فنظر إليها: «الحقيقة أنه ليس بالأمر الذي أتحدث عنه عادة».

هزت كتفيها: «ربما عليك أن تفعل هذا، يقولون إن هذا جزء من العلاج لشفاء النفس».

التوى فمه بجفاء: «لقد شفيت، هل يمكن أن نغيّر الموضوع؟».

ونظر إليها بضيق بالغ.

ـ آسفة... فهذا ليس من شأني. ما كان لي أن أقول ذلك.

ـ لا بأس.

نار الغيظ التي اشتعلت في صدر كالوم خمدت بسرعة. وعاد ينظر إليها بشيء من الإخلاص والرقة جعله يندم على طلبه تغيير الموضوع.

برزت أمامهما على الطريق نعجة متسكعة فأبطأ كالوم من سرعة السيارة ثم أوقفها، مسروراً للعذر الذي يجعله يعيد انتباهه الى زاوي.

ـ كايل ذكرني بنفسي وأنا في عمره. لقد شعرت مثله بضعف بالغ وعدم أمان لمدة طويلة.

وقطبت جبينها ثم رفعت بصرها فجأة وكأنها انتبهت الى أنها تحدثت طويلاً بشكل مرتفع.

ـ وهل كان أبوك قادراً على التحدث معك عن ذلك؟

ابتسمت بحزن: «لقد حاول جهده، فهو أيضاً كان حزيناً... لقد افتقد أمي حقاً، لأنها كانت حب حياته. أظنه واجه الأمر كما يواجهه أغلب الرجال، وكبت مشاعره إلى أقصى حد، ودفن نفسه في عمله».

سألها بهدوء: «وماذا فعلت أنت؟».

هزّت كتفيها: «تعلمت كيف أعتمد على نفسي».

قطب كالوم جبينه، فعدم تكلفها، وحديثها الطبيعي صدماه كلياً.

ـ أصبح الطريق خالياً.

تطلّب استيعابه ما تقول لحظة. جالت عيناه على جمال ملامحها وتألق عينيها. وتذكر السرور الذي غمره عندما عانقها...

ـ قلت إن الطريق أصبح خالياً.

ـ نعم، وهو كذلك.

وحوّل نظره عنها، كانت آسرة إلى حد كبير. ربما هذه هي المشكلة. ربما انجذابه إليها أعمى عينيه عن عيوبها؟.

وعندما عاد ينطلق بالسيارة، عادت هي الى النظر الى المشاهد. وسألها برقة: «وكيف حال العلاقة الآن بينك وبين أبيك؟».

تغاضت عن الموضوع، فهي لا تريد التعمق في ذلك الأمر بالذات.

دار كالوم بالسيارة حول البيت، نادماً على السرعة التي عادا فيها. كان هناك الكثير مما يريد أن يعرفه عن زاوي.

وعندما رأت هي سيارة مارك واقفة بجانب سيارتها، قالت: «ما زال أخوك هنا».

قال مقطباً جبينه: «ربما حدث شيء للمواشي. إلا إذا كان يتسكع هنا ليجرب حظه معك مرة أخرى. أخي لم يتعود أن ترفضه النساء، وهذه هي المرة الأولى».

نظرت زاوي إليه، فرأت أن هذا ينطبق على الأخوين. لأنهما هما الإثنين بالغا الوسامة. لكن كالوم كان يفوقه طولاً وخشونة في الجسم.

دخلا المنزل والتقط كالوم من خلف باب المطبخ جزمة طويلة وأخذ ينتعلها: «الطفلان يخرجان من المدرسة في الثالثة والنصف. هل تعرفين كيف تعودين الى المدرسة؟».

ـ طبعاً أعرف فقد عرفت كيف آتي الى هنا، أليس كذلك؟.

وبدا السخط في عينيها الخضراوين، فابتسم: «لابأس، ولكن من الأفضل أن تستعملي سيارتي أثناء وجودك هنا، لأنها أكثر أماناً من سيارتك الرياضية. فالطرق غدّارة في هذا الوقت من العام. ولا تنسي إطعام التوأمين».

وأشار الى الزريبة الصغيرة التي أقامها للحملين.

كان على وشك الخروج عندما رن جرس الهاتف في الردهة.

فقطب جبينه: «هل لك أن تردي على الهاتف من أجلي يا زاوي؟ لا أريد أن أسير في البيت بهذه الجزمة».

أسرعت لترفع السماعة، متوقعة أن يسأل شخص ما عن كالوم.

لكنها دهشت عندما سمعت صوت زميلتها في الشقة: «آه، زاوي، أنا مسرورة لأنك من أجاب. إسمعي كيف تشغلين ماكينة الغسيل، علي أن أقدم اختباراً عصر هذا اليوم وقد نسيت أن أغسل ثوب الرقص».

ضحكت زاوي: «انتظري لحظة».

وغطت السماعة بيدها ونادت تقول لكالوم: «لا بأس المكالمة لي».

قطب كالوم جبينه، فخطة فرانسيس أعطت نتائج عكسية، وبدلاً من إبعادها عن ذلك الرجل غير المناسب، إذا بها تكلمه صباحاً وظهراً ومساء.

وجد كالوم أخاه في المرعى الاعلى، وعندما التحق كالوم به كفّ عن العمل وسأله عى الفور: «ما هي خطتك الوضيعة نحو زاوي اللذيذة؟».

أجاب كالوم بسرعة: «ليس هناك خطة وضيعة».

ـ هل أنت مهتم بها؟

طرح مارك هذا السؤال، ثم صفا وجهه وبسط يديه: «هذا عظيم يا كالوم! أنا آسف لم أدرك ذلك وإلا ما عرضت عليها الخروج معي...».

ـ أنا لست مهتماً بها، لكنني أكون شاكراً لو بقيت بعيداً عنها كذلك.

ـ لماذا؟

ـ إنها موظفة، وأنا لا أريد أي تعقيدات.

هزّ مارك رأسه: «آسف، يا أخي، ولكن هذا ليس سبباً مقنعاً لأبقى بعيداً عنها. إنها رائعة».

تمنى لو أن بإمكانه عدم موافقة أخيه على رأيه، لكنه لم يستطع. وتابع مارك: «والآن أخبرني أي صديق زكّى لك وكالة الخدمات تلك؟».

تمتم كالوم: «فقط دع عنك هذا، فهو أمر لا يعنيك».

***

٤ـ امرأة في خياله

كان الولدان قد أنهيا فروضهما المدرسية للتوّ وجلسا أمام شاشة التلفزيون قبل النوم، عندما قُرع الباب الخلفي ودخلت امرأة مسنّة الغرفة.

صرخ الولدان بابتهاج وهما يتسابقان لاستقبالها: «جدتي».

ـ مرحباً، يا عزيزيّ فكرت في المرور لأراكما.

واحتضنتهما، ثم نظرت الى زاوي: «أنا إيلين» لا بد أنك زاوي».

مدت الفتاة يدها تصافحها: «نعم».

بدت لها امرأة لطيفة، حسنة الهندام وقد مشطت شعرها الأبيض الناعم الى الخلف فكشف عن وجهها الآسر التقاطيع وعينيها البنيتين.

ـ هل الولدان مهذبان معك؟

شيء ما في عيني إيلين وهي توجّه هذا السؤال جعل زاوي تبتسم: «إنهما جيدان جداً».

ـ أنا مسرورة لسماع ذلك. أما زال كالوم في عمله؟

فأومأت زاوي.

تمتمت إيلين وهي تجلس الى المائدة: «الولادة وقت صعب عنده».

تقبلت كوب الشاي الذي قدمته لها زاوي، ثم جلس الجميع فترة حول المائدة يثرثرون، إلى أن حان وقت ذهاب الولدين الى النوم.

صعدت الجدة معهما بينما أخذت زاوي ترتّب المطبخ وعندما عادت إيلين قالت لها: «لقد نجحت حقاً».

www.elromancia.com

ضحكت زاوي: «لا أعرف عن هذا شيئاً. كان لدى كايل شعر بين فروضه المنزلية الليلة، ولا أظنه كان مسروراً عندما قلت له إن عليه أن يدرسه مجدداً».

ـ يبدو سعيداً في الواقع.

وأخذت المرأة تتأمل الفتاة مفكرة: «حسناً، الأفضل أن أخرج، لا أريد أن أتأخر في الخارج في هذه الليالي».

عندما أخذت الجدة تسير نحو باب المطبخ، بدت على وجهها مسحة ألم. وعندما رأت الاهتمام على وجه زاوي، سارعت تقول: «أنا بخير، وإنما هو التهاب المفاصل فقط. فقد أصبح مؤلماً مؤخراً».

أومأت زاوي، فقالت المرأة بلهفة: «ولكن لا تذكري ذلك أمام كالوم. إذا علم أنني لست بخير فسيصر عليّ حتى أستريح، وهذا ما لا أريده في الواقع. لأنني أصريت على أن أستلم مقاليد الأمور هنا بعد موت هيلين».

قالت زاوي بحزم: «حسناً يجب أن تستغلي فرصة وجودي هنا لكي تستريحي قليلاً».

تنهدت إيلين: «هذا هو قصدي. صدقيني يا زاوي عندما أخبرني كالوم بأنك قادمة شعرت أن الله استجاب دعائي».

ضحكت الفتاة: «لا بد أن كالوم أدرك حاجتك للراحة».

قطبت إيلين جبينها: «هنا الغرابة، فقد حرصت على إخفاء سوء حالتي عنه، وفجأة أخبرني بأنك قادمة لمدة أسابيع».

ـ ربما لاحظ مارك شيئاً فأخبره.

هزّت إيلين رأسها: «المهم أنه أصبح بإمكاني الآن الاستلقاء رافعة قدميّ غير قلقة خاصة بعدما اطمأنيت على الحال هنا».

عندما عاد كالوم بعد ذلك بفترة كانت إيلين قد ذهبت وأواني الشاي قد غسلت. دخل المطبخ الدافىء ولاحظ نظافة المكان. حتى في وجود هيلين، لم يكن المكان يبدو بهذا الترتيب. كما أن رائحة طعام رائعة كانت تفوح.

اجتاز المطبخ الى غرفة الجلوس. فبدا له البيت بأرجائه كلها بنفس النظافة والنظام.

صعد الى الطابق الأعلى ليطمئن على الولدين اللذين وجدهما نائمين.

فتح باب غرفته وإذا به يرى زاوي على سريره وقد استغرقت في النوم.

حدق إليها لحظة، متسائلاً عما تفعله هنا، ثم تذكر أنهما تبادلا الغرف.

كانت ترتدي تنورة حمراء طويلة وبلوزة سوداء، وشعرها الأشقر منتشراً فوق الغطاء كهالة ذهبية حول وجهها. تحرك شعور ما في أعماقه... شعور عميق بدائي. تمنى لو يتقدم ويأخذها بين ذراعيه ويعانقها.

أخذ يتراجع ليخرج من الباب وإذا بأهدابها تختلج وتفتح عينيها. فقال معتذراً: «آسف نسيت أنك هنا».

تمطت ونظرت الى ساعة الحائط: «لا بأس، لقد استلقيت لحظة وإذا بي أستغرق في النوم. لا بد أنها رحلة الأمس، ثم هذا الصباح الباكر».

ونظر الى ساقيها الطويلتين وهي تنزل من السرير: «هل تعشيت؟».

ـ لا، فكرت في أخذ دوش أولاً. هل لديك مانع في أخذ بعض الملابس من خزانتي؟.

قالت وهي تقف: «خذ ما تريد وأنا سأخرج لأفسح لك المجال».

عندما نزل الى الطابق الأسفل بعد الاستحمام وتغيير ملابسه، كانت هي في المطبخ.

ـ هناك رائحة شهية هنا، ما هي؟.

ـ أحد اختصاصاتي في الطهي.

ـ ماهي؟ يخنة البازيلا؟

وضحك، ولوى وجهه بترفع: «أنت لا تحاولين أن تجعلي الطفلين نباتيين، أليس كذلك؟».

سألته مداعبة: «وما الخطأ في أن يكونا نباتيين؟ أتريد أن تجرب؟».

ـ لا، حقاً.

ـ لكنني تركت لك منه خصيصاً.

أخذ ينظر إليها وهي تخرج طبق اليخنة من الفرن ثم قال وقد فوجئ: «هذا جميل جداً منك. لكنني لا أتوقع منك أن تقدمي لي عشاء عندما أعود. الولدان فقط هما مدار اهتمامي».

هزت كتفيها: «لا إزعاج في هذا. هذا ما بقي من عشائهما على كل حال».

ابتعدت لتملأ إبريق الشاي فتناول الطبق: «هذه ليست وجبة نباتية».

التفتت إليه: «أنا لم أقل إنها نباتية بل أنت من استنتج ذلك».

ـ نعم، أظن هذا.

وجلس الى المائدة وتناول بعض الطعام: «هذا لذيذ جداً».

ـ ليس هناك ما يدعوك الى هذه الدهشة. فأنا طاهية مؤهلة وهذا موجود في أوراق طلب العمل الذي قدمته إليك.

قال ضاحكاً: «الطلب لا يكون صحيحاً دوماً».

ـ ولماذا وظفتني عندك إذن؟

كاد يختنق بالطعام وهي تضيف: «لا بد أن أخريات تقدمن لهذا العمل فأرسل إليك مارتن طلباتهن لتختار أنت من تريد».

ـ لا، لم يرسل إلا أوراقك فقط.

قطبت حاجبيها، فحاول أن يلطف الجوّ: «على كل حال، لقد زكّاك مارتن كثيراً. وإذا كان لهذه الوجبة أن تشهد، فقد عرفت السبب».

أنهى طعامه ثم سألها: «أين تعلمت الطهي بهذه المهارة؟».

ترددت، بإمكانها أن تخبره أنها تعلمته في سويسرا، لكنها رأت في ذلك شيئاً من الادعاء والتظاهر فقالت: «أنا أعشق الطهي. وهو إحدى هواياتي، والأكل أيضاً واحد منها».

نظر الى جسمها الرشيق وقال: «لا أرى فيك ما يشهد على أنك تحبين الأكل».

ـ أنا أمارس الرياضة بكثرة.

وصدّق كالوم هذا، وحتى يغيّر الموضوع قال فجأة: «كيف كان

نهارك؟ أية مشاكل؟».

ـ لا.

ظن للحظة أنها ستغادر المطبخ وتصعد الى الطابق الأعلى. ولم يكن يريد ذلك بل أراد أن يزداد معرفة بها، أن يحاول معرفة ما هو الصحيح وما هو الزائف في ما أخبره فرانسيس برنارد عن ابنته.

سألها مندفعاً: «أتريدين عصيراً؟».

التفتت بدهشة: «نعم، شكراً».

أخرج إبريق ليموناضة من البراد فأخذت تنظر إليه، كان يرتدي بنطلوناً عسلياً وكنزة بيج. والواقع أن الألوان الفاتحة تناسب بشرته الداكنة.

ـ فلنذهب الى غرفة الجلوس.

كانت نار المدفأة تضطرم بينما ينير الغرفة مصباحان جانبيان أسبغا عليها وهجاً مريحاً. وجلست زاوي على الكرسي الأقرب الى النار.

ـ لا بد أنك متعب.

قالت له هذا وهو يجلس على أريكة صغيرة مواجهة لها فردّ وهو يسكب العصير في كوبين: «أنا متعب فعلاً. فهذا أصعب أوقات السنة لكنني مسرور بوجودك هنا لتساعديني على اجتيازه».

فقالت مازحة: «في البدء لم يكن هذا شعورك؟».

ـ آسف إذا كنت حذراً قليلاً منك يا زاوي. ولكن لم يسبق لي قط أن أدخلت منزلي شخصاً لا أعرفه لكي يرعى الطفلين. منذ وفاة هيلين، كانت أمي أو ميلي تعتنيان بطفليّ اللّذين هما كنزاي، وأنت...

أكملت له جملته: «مجرد امرأة غريبة يمكنني أن أفهم هذا».

ابتسم لها: «شكراً».

ـ لماذا؟.

ـ لأنك فهمت ما كنت أحاول قوله ولأنك حاولت التحدث معي عن كايل هذا الصباح. آسف اذا فوجئت قليلاً.

ـ كنت أحاول المساعدة فقط.

www.elromancia.com

ـ أعرف هذا، يبدو لي أنك امرأة متعددة المواهب وغير سطحية أبداً.

تمتمت بخجل: «حسناً يمكنني أن أطهي».

ابتسم: «نعم، وقد ارتحت كثيراً عندما علمت أن الولدين لن يمضيا أسابيع على شرائح اللحم المشوي».

ضحكت: «لا يمكنني أن أتعهد بألاّ أقدم لهما أحياناً وجبة نباتية».

ـ يمكنني أن أتعود على هذا.

مرت لحظة صمت، وأخذ يفكر بأن ضحكتها جميلة دافئة. وتمالك نفسه قائلاً: «كيف كان الولدان اليوم؟».

فابتسمت: «كان مزاج كايل سيئاً عندما خرج من المدرسة لأنهم حجزوه ساعة، لكنه سرعان ما استرد بشاشته».

ـ وماذا فعل؟

كبحت ابتسامة: «أطلق الفأرة والحيوانات التي تربيها المدرسة من أجل أهداف تعليمية، في غرفة الصف فأحدثت جلبة كما يبدو».

فتمتم كالوم: «لا أدري من أين ورث هذا الشغب؟».

قالت وهي تنظر إليه: «أظنك كنت دوماً تلميذاً مثالياً».

ـ دوماً وأنت؟.

بدا في عينيه المزاح وهما تشتبكان بعينيها. ثم أومأت والمكر في عينيها الخضراوين: «كنت مثالية من كل النواحي إلا عندما أوشكوا أن يطردوني».

رفع حاجبيه: «وماذا فعلت؟».

سكتت لحظة ثم ضحكت: «سأخبرك على أن تعدني بأنك لن تتخذ هذا ضدي. فأنا أصبحت جديرة بالثقة هذه الأيام».

أخذ ينظر الى لهب النيران ينعكس على بشرتها النقية، ولاحظ التعبير الجاد في عينيها. بدت صغيرة جداً كالمراهقات تقريباً بشعرها الطويل المنسدل وشفتيها المرسومتين: «أخبريني بما حدث!».

ـ أرسلني أبي الى مدرسة داخلية فكرهتها. وهكذا رحت أسعى الى التحرر منها. فعلت كل ما استطعت التفكير فيه لأخرج منها. لكنهم كانوا

يعطونني إنذارات. لهذا نظّمت رحلة جماعية ضخمة للفتيات حالما تطفأ الأنوار، حيث ذهبنا الى القرية.

ـ كم كان عمرك حينذاك؟

ـ ثلاثة عشر. رقصنا وتحدثنا الى بعض فتيان القرية. كان الأمر بريئاً حقاً، ولكني أعترف بأنني دخنت سيجارة واحدة، جعلتني أشعر بالغثيان، على كل حال وشت بنا إحدى الفتيات من قسم آخر في المدرسة، وتبعنا السيد هاوكنز حتى الردهة. ومع هذا لم يطردني.

بدا له وكأن أباها قد عانى الكثير منها حينذاك. وشعر كالوم بتعاطف معه: «إذا كنت تكرهين مدرستك الى هذا الحد، فلماذا لم تطلبي من أبيك أن يخرجك منها؟».

ـ لقد رجوته وتوسلت إليه أن يدعني أعود إلى البيت. لكنه طلب مني أن أكون صلبة قوية. كان مشغولاً وكان يظن أن المدرسة الداخلية سترعاني.

قطبت جبينها فترة تفكر في ذلك.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ آه، وقعت في مشكلة كبيرة.

وأدارت عينيها ناظرة الى أعلى فضحك كالوم.

ـ ألم يطردوك؟

ـ لا، فقد قررت بعد ذلك أن أخضع للقوانين، وأصبحت تلميذة مثالية. ولسوء الحظ كان عليّ أن أمضي هناك المدة المحكوم عليّ بها كاملة.

ـ تصورين الأمر وكأنه سجن لك.

ـ هذا ما كنت أشعر به. كان لديهم نظام حازم جداً، كان صارماً قاسياً ينقصه كل رحمة انسانية. وقتذاك شعرت بالتعاسة وبالحنين الى وطني.

ـ لو حاولت التحدث مع أبيك لأعادك حتماً، أو على الأقل لغيّر لك المدرسة.

ـ أنت لا تعرف أبي فهو ليس رجلاً يسهل الحديث معه.

وابتسمت بجفاء. وتحرك هو في مقعده بضيق.

غضنت أنفها: «كان أبي يقول دوماً إني محظوظة لارتيادي تلك المدرسة، وعندما كان يقول ذلك كنت أشعر حقاً بالكآبة».

ـ لكننا كلنا نقول هذا للأولاد، أليس كذلك؟ وفترة الدراسة هي فترة تخلو من انشغال البال.

قالت زاوي بحزم: «لكنها ليست كذلك لبعض الأولاد».

ـ هل لديك أخوة؟

ـ لا، لم تستطع أمي أن تنجب غيري، أبي لم يتزوج بعد أمي وأنا آسفة لهذا.

ـ هل كنت تريدين منه أن يتزوج؟.

ـ كان من الأفضل له أن يتخذ شريكة أخرى في حياته. لقد ركز بعد وفاة أمي على العمل ورغم نجاحه الكبير، أظنه يشعر بالوحدة.

قال كالوم متأملاً: «لقد حصل على الأقل على حب حياته، وحصل عليك أيضاً».

أمالت زاوي رأسها متسائلة عما إذا كان هذا هو شعور كالوم بالنسبة الى وضعه: «لكنني لا أظن أن أمي أرادت أن يبقى وحيداً الى الأبد».

تمتم يقول: «ولا أظن أن هيلين تريد مني أن أبقى وحيداً أنا أيضاً. لكنني أفترض أن الشخص يكون محظوظاً إذا وجد السعادة مرة ثانية».

ـ نعم... هذا صحيح.

تقابلت عيونهما ولسبب ما، شعرت وكأن أنفاسها انحبست لحظة.

قال محاولاً التظاهر بعدم الاكتراث: «أما زال أبوك ناجحاً؟».

ـ نعم. أكثر من أي وقت مضى.

ـ هذا جيد.

ـ حسناً، سأكون كاذبة إن قلت إن هذا غير هام. مثلاً، سيارتي هي هديته في عيد ميلادي الحادي والعشرين.

هذا يبرهن على أنها تحب المال والحياة العصرية. ولكن ماذا في ذلك؟

ونظرت في عينيه بثبات: «لكن المال ليس كل شيء يا كالوم. أعرف أن

كلامي قد يبدو مبتذلاً، لكنه صحيح. اعتاد أبي على إرسالي في إجازات رائعة عندما كنت في المدرسة والجامعة. وكان ذلك حناناً منه، لكنه كان يفعل هذا لأنه ليس في البيت. ولهذا كان يظن إذا أرسلني برحلة في الطائرة، ومعي من يحرسني فسأكون سعيدة! بينما في الحقيقة كنت لأسعد أكثر لو أمضيت العطلة معه. المال لم يستطع إنقاذ أمي عندما مرضت... وهو لا يمكن أن يشتري احترام الذات.... ولهذا لم أعد أقبل هدايا من أبي. يظنني أصبحت سيئة الخلق، ولكن في حياة كل إنسان فترة يطلب فيها الاستقلال. ولن أتمكن من ذلك إذا ظلّ أبي يقود زمام حياتي.

سألها: «وهل موت أمك جعل نظرتك الى الحياة أكثر واقعية؟».

نظرت إليه وقد سرها أن يدرك ذلك: «نعم، وهذا ما دفعني الى أن أتعلم كل ما استطعت من المهن، أردت بذلك الوقوف على قدميّ».

وسكتت شاعرة فجأة بالخجل: «آسفة، أظنني أتحدث دوماً عن أبي...؟».

وشعرت بالذنب لأنه هو الذي يقودها في ذلك الاتجاه.

ثم قالت بمرح: «على كل حال، لقد تحدّثنا عني بما فيه الكفاية... أليس كذلك؟».

ابتسم: «استمتعت حقاً بذلك».

كانت عيناه رائعتين، والواقع أن كالوم أكثر وسامة من أن يريح القلب.

وعندما حاولت صرف تلك الأفكار من ذهنها وجدت صعوبة كبيرة.

ـ بعدما اعترفت لك بأسراري عليك أن تخبرني بأكثر تصرفاتك مكراً في المدرسة.

قال ضاحكاً: «سبق وأخبرتك بأنني كنت تلميذاً مثالياً».

ـ ولكن إذا سألت مارك فسيخبرني غير ذلك.

ـ ربما سيخبرك عندما وضعت دوداً في درج المعلم.

اتسعت عينا زاوي: «غير معقول، هذا أسوأ من كل ما فعلته أنا».

ابتسم: «هذه كذبة شريرة. ليس أنا من فعل ذلك، بل مارك».

ضحكت: «هذه هي العادة. إلقاء اللوم على الأخ الأصغر، هل عشت دوماً في كامبريان؟».

ـ لا. أنا أصلاً من «شيشيا»، جئت الى هنا لأمضي إجازة ولم أعد قط الى موطني... حسناً، لكي أبيع فقط... كنت بالغ النهور في تلك الأيام.

ولوى شفتيه أسفاً.

ـ أنهم من هذا أنك تعرفت الى زوجتك هنا وهذا ما جعلك تصمم على البقاء.

حوّل عنها نظراته: «نعم، هذا ما حدث».

سألها إن كانت تريد القهوة.

ـ لا، شكراً. سأسكب بعض الليموناضة.

ومدت يدها الى الإبريق في الوقت الذي فعل هو فيه ذلك. وتقابلت يداهما على الزجاج البارد فرفع بصره إليها وإذا بهما يحدقان لحظة إلى بعضهما البعض. فتدفق في كيان زاوي سيل قوي من المشاعر...

سحبت يدها: «آسفة».

ـ لا بأس. اسمحي لي.

تساءلت عما إذا لاحظ تأثير لمسته فيها، وتأثير سقوطها بين ذراعيه هذا الصباح. فكرة أنه لاحظ ذلك أحرجتها كثيراً فهو رب عملها.

قال برقة: «أنا مسرور لهذه الفرصة التي سنحت لنتعارف أكثر».

نظرت إليه غير واثقة، فعاد يقول: «جميل أن أعلم أن الطفلين بعهدة من أستطيع أن أثق به».

لماذا شعرت بخيبة الأمل هذه؟ فقد أحبّت أن يزداد معرفة بها لأمور شخصية.

ـ أظنك ترين الأشياء هنا هادئة جداً ومثيرة للملل بعد لندن.

هزت رأسها: «لا، أبداً».

ـ ماذا تفعلين هناك عندما لا يكون لديك عمل؟

ـ الأشياء المعتادة. أخرج الى المسرح أو أتعشى في الخارج. وأنا أحب الرسم أيضاً.

ـ أترسمين الأشخاص؟

ـ لا، بل المناظر الطبيعية.

ابتسم: «حسناً، لدينا الكثير منها هنا».

عندما يبتسم لها بهذا الشكل، تكاد تنسى أن كل اهتمامه بها سببه عنايتها بولديه. وفكرت فجأة في أنها تشعر نحوه بمودة كبيرة.

وضعت الكوب على المائدة: «حسناً، عليّ أن أذهب الى النوم».

وهمت بالوقوف ثم أردفت: «قبل أن أنسى... لدى كايل حفلة موسيقية غداً في المدرسة في الساعة السادسة ويريد منك أن تحضر».

دس كالوم يده في شعره مفكراً، فقالت برقة قبل أن يجيب: «هذا أمر هام له، يا كالوم».

نظر الى الجد في عينيها وأومأ: «سأكون هناك. لكن لماذا يقومون بمثل هذه الأمور باكراً؟».

قالت والهزل في عينيها: «ربما لأن الأطفال ينامون باكراً».

ابتسم فقد أعجبه أن تعلم أن الحفلة الموسيقية تهم كايل جداً. أعجبه الهزل في عينيها الرائعتين.... وفي الواقع بدأ يحب كل ما فيها.

نظرت الى ساعتها: «هل يمكنني استعمال الهاتف؟».

قطب جبينه لكنه سرعان ما تمالك نفسه: «نعم، بالتأكيد».

لا بد أن علاقتها بصديقها جادة ما دامت ستتصل به مرة أخرى، هذا ما فكر فيه وهو ينظر إليها تبتعد الى الردهة. ولأمر ما لم تعجبه تلك الفكرة.

سمعها تطلب الرقم. وتساءل عما إذا كان عليه أن يفتح جهاز التلفزيون ليسمح لها ببعض الخصوصية.

لكنه لم يتحرك. كان فضوله كبيراً فما إن يظن أنه عرفها حتى تنظر إليه بهاتين العينين الخضراوين الآسرتين وتقول شيئاً يقلب مفهومه رأساً على عقب.

لقد أعجبته شجاعتها وحبها للاستقلال. وفرانسيس كان مخطئاً بالنسبة لابنته. أتراه مخطئاً أيضاً بالنسبة الى الرجل الذي تخرج معه؟

ما كان له أن يتورط في مشروع فرانسيس البائس، لكنه يعرف فرانسيس منذ وقت طويل، وهو رجل مهتم اهتماماً حقيقياً بابنته. ما الذي قاله؟ ماتيو ديفاين نصاب؟ ويخون ثقة الإنسان فيه. . . ؟

هل كان فرانسيس سيزعج نفسه بإحضار ابنته الى هنا لو لم يكن قلقاً عليها بجنون؟ لا بد أن الأمر كان صعباً عليه، خصوصاً وهو مريض.

سيقوم بهذه الخدمة لفرانسيس ويبقيها مشغولة هنا بينما يتخلص هو من ذلك الرجل غير المناسب. ولن يشعر بالذنب لهذا، كما أخذ يحدث نفسه بحزم. لقد حصلت زاوي على أجر باهظ لكي ترعى بيته، ولو أنها لم ترغب في هذا العمل لما جاءت الى هنا.

لكن الشعور بالضيق استمر.

وهناك في الردهة، كانت زاوي تتصل بأبيها مذعورة إذ لم تكن تريد أن تتنازل، بل تريد أن تقود حياتها بنفسها. لكنها لم تشأ هذا الصمت بينهما. حديثها مع كالوم حملها على التفكير في أبيها مرة أخرى. نعم، إنه فظ أحياناً، ومستبد للغاية، لكنه يحبها.

رن الهاتف ورن، ثم أخذ المجيب الآلي يطقطق. وضعت زاوي السماعة، ثم نظرت الى ساعتها. كانت الحادية عشرة تقريباً. وتساءلت أين عساه يكون.

وتهادت عائدة الى غرفة الجلوس.

ـ ألا جواب؟

أجابت وهي تتساءل عما إذا كان عليها أن تترك رسالة: «لا».

بدت عليها الكآبة. وقطب كالوم حاجبيه. كم سيكون أساها كبيراً عندما تعود الى لندن وتكتشف أن صديقها غير المناسب قد اختفى بعد أن قبض الثمن.

ـ لو كنت مكانك لما تملكني القلق. ربما هو في الخارج يسهر. . .

ـ ولماذا تظن أنني أتصل برجل؟

ابتسم: «مجرد طلقة في الظلام. ولكن ذلك كان صحيحاً، أليس كذلك؟».

ـ نعم، ولكن ليس رجلاً عادياً. . .

أزعجتهما صرخة من الطابق الأعلى.

ـ إنها صرخة من الطفلين. . . هل أذهب؟

ـ لا. سأرى بنفسي.

وأسرع يصعد السلم.

إنه كايل الذي رأى كابوساً. أخذه كالوم بين ذراعيه بلاطفه ويمسح دموعه، إلى أن عاد الصبي الى نوم مريح مرة أخرى.

توقفت زاوي أمام الباب المفتوح وأخذت تنظر الى حنان كالوم مع ولده.

وعندما خرج من الغرفة، سألته همساً: «هل هو بخير؟».

أومأ: «مجرد كابوس».

ابتسمت: «حسناً، تصبح على خير إذن».

ـ تصبحين على خير.

عندما فتحت باب غرفتها، لحقها قائلاً: «زاوي».

التفتت إليه: «نعم».

رباه! ليتها لم تنظر إليه بهذا الشكل. عيناها الواسعتان الداعيتان جعلتاه لا يستطيع التركيز: «كنت أتساءل متى أرضعت الحملين آخر مرة».

ـ بعد العشاء بالضبط.

ابتسم: «لا بأس. الى اللقاء صباحاً».

ابتسمت: «الى اللقاء صباحاً».

تحول كالوم الى الغرفة الاحتياطية. خلع ثيابه في الظلام ودخل الى سريره مباشرة. ما زال عطر زاوي على الوسائد، وكان هذا مثيراً للغاية.

كان على وشك أن يدعوها للخروج معه. الله يعلم ما الذي تملكه. إن

لديها صديقاً، وهي هنا لأسابيع قليلة فقط. لقد كذب عليها بشأن العمل وتآمر مع أبيها... قدّم الكثير من الأعذار كي لا يتورط في هذا الأمر، ثم حاول أن يصرف ذهنه عن زاوي. لكن لمعان الهزل في عينيها الخضراوين لم يفارق خياله، وهذا ما يفعله به أيضاً العطر المترسب على الوسائد.

وأخذ يتململ في السرير. وتساءل عما إذا كان سبب شعوره هو عدم خروجه مع امرأة منذ زمن طويل.

وتحولت أفكاره الى هيلين. هيلين الرائعة الجمال، بعينيها الضاحكتين المليئتين بالحياة. ماذا كانت ستنصحه بأن يفعل؟

***

٥ـ عندما يتيه القلب

عندما عاد كالوم الى البيت في الصباح التالي، وجده خالياً. بدا واضحاً أن زاوي في المدرسة تحضر الحفلة الموسيقية وقد طلب منها أن تسبقه إذا تأخر، واعداً إياها بأن يتبعها إلى هناك.

نظر إلى الساعة. لا بد أنها خرجت منذ قليل، فأسرع الى المطبخ ومنه إلى الردهة. كان المجيب الآلي مضيئاً، فضغط على الزر وصعد السلم إذ لم يكن لديه وقت للوقوف والاستماع وعليه أن يغتسل ويبدل ملابسه. وإذا بصوت رجل يذكر اسم زاوي جعله يقف على السلم ليستمع.

قال ببطء «عزيزتي، أنا ماتيو، كل شيء جاهز للخامس عشر. هل لك أن تتصلي بي عندما تعودين؟ وبالمناسبة، جاء أبوك لرؤيتي. وأنا أريد أن أتحدث معك عن ذلك؟».

جمدت يدا كالوم وهو يخلع قميصه. رباه! ماذا يريد هذا المسمى ماتيو أن يخبرها؟ أبوك يحاول أن يشتريني لأتركك؟ أبعدك أبوك ليخرجني من حياتك. لا، طبعاً ففرانسيس داهية، وهو ليس من الغباء بحيث يدع هذا الخبر يفلت منه. وتساءل عما هو جاهز لليوم الخامس عشر؟

سيتصل بفرانسيس فيما بعد ويعرف الحقيقة. ولكن ليس لديه وقت الآن فهو لا يستطيع أن يتأخر عن كايل.

بعد أن بدّل ملابسه أخذ يتساءل عما إذا كان عليه أن يضغط على الزر الذي يحفظ الرسالة في الآلة.

أسرع يهبط السلم إلى الطابق الأسفل، فلاحظ فجأة الأزهار الغضة في

www.liromancia.com

غرفة الجلوس وعلى منضدة الردهة. لقد قطفت زاوي أزهار الليل من الحديقة ووضعتها في زهريات بلورية. وغزا العطر المثير عقله لحظة.

منذ زمن طويل لم تدخل الأزهار البيت، فهيلين آخر من قطف الأزهار ووضعها في هذه الزهريات. وإذا أغمض عينيه يمكنه أن يراها تنسقها.

نظر الى المجيب الآلي، وتوقفت يده فوق زر حفظ الرسائل. ثم ولسبب ما، ضغط زر الإلغاء.

ما إن استقر كايل خلف المسرح، حتى وجدت زاوي بعض المقاعد فقادت أليس إليها. ليت كالوم لا يتأخر لأن المقاعد بدأت تمتلىء.

قالت لأليس وهي تضع حقيبة يدها على كرسي خالٍ بقربها: «سنحجز كرسياً لبابا».

ثم ساعدت الطفلة على خلع معطفها الواقي من المطر.

- عن إذنك.

التفتت زاوي عند سماعها هذا الصوت الأنثوي، ومضت لحظات قبل أن تميز أن صاحبته هي التي سبق أن قدمها كالوم إليها خارج المدرسة.

- آه، مرحباً.

وابتسمت لها زاوي. بدت جذابة كثيراً في معطف طويل أسود وبذلة رمادية تحته. وكان شعرها الأسود الحريري يتأرجح مع حركاتها: «أنت سالي، أليس كذلك؟».

- نعم، أتساءل عما إذا كان هناك من يجلس على الكرسي الذي بجانبك.

- أنا أحجزه لكالوم الذي سيصل في أي لحظة.

أومأت المرأة وأخذت كرسياً الى الجانب الآخر من الكرسي الخالي. ثم سألت زاوي: «كيف حالك هنا؟ ألا تجدين المنطقة مملة بعد لندن؟».

- أنا مسرورة جداً. شكراً، كيف عرفت أنني من لندن؟

قالت سالي وهي تخلع معطفها وتضعه بعناية على ظهر كرسيها: «لا بد أن كالوم هو من أخبرني بهذا. أنت تعملين متأخرة الليلة. أليس كذلك؟».

هزّت زاوي كتفيها: «أنا لا اعتبر هذا عملاً وأتشوّق لأشاهد الحفلة».

رفعت سالي حاجبيها: «لا بد أنك مخدوعة. فأنا ما كنت لأحضر إلى هنا لولا إلحاح كلارا ابنتي الكبرى لأن هذه الأشياء مملّة».

وشبكت ذراعيها على صدرها ونظرت إليها: «والآن، أخبريني يا زاوي، هل ستمكثين هنا وقتاً طويلاً؟».

قالت هذا بجفاء، فشعرت زاوي فجأة وكأن المرأة تستجوبها، ولكن قبل أن تجيب أحنت أليس رأسها لتتمكن من النظر الى المرأة الأخرى، ثم قالت بحزم: «أرجو أن تبقى زاوي هنا مدة طويلة جداً جداً».

تمتمت سالي: «يا للحلاوة».

ونظرت زاوي الى الطفلة: «شكراً يا أليس، قولك هذا لطيف جداً».

بدأت الأنوار تخفت، وأصبحت القاعة مضاءة بالشموع فقط. الحفلة على وشك أن تبدأ... ونظرت زاوي نحو الباب. أين كالوم؟

وإذا بالباب يفتح ويدخل هو فرفعت زاوي يدها تلوّح له لكي يراهما.

همس كالوم وهو يمرّ بسالي ليجلس في كرسيه: «آسف».

وهمست زاوي: «خشيت ألا تتمكن من الحضور».

قال باسماً: «وأنا أيضاً، شكراً لأنك نبت عني».

رباه، إنه جذّاب كثيراً... كانت زاوي تفكر في ذلك وهي تنظر في عينيه. حولت انتباهها الى المسرح، وحاولت أن تنسى قربه منها، لكنها في الحقيقة، كانت واعية جداً الى ساقيه الطويلتين وهما تستندان قليلاً الى ساقها في تلك المساحة المحدودة، والى رائحة الكولونيا التي بدت دافئة وزكية.

سمعت صبياً يقول بصوت خجول بالغ التكلف: «مرحباً بكم إلى احتفالنا بالربيع».

وابتسمت زاوي عندما أخذ كايل يتقدم الى الأمام: «زمن البدايات الجديدة والأيام الدافئة».

قال هذا وهو يبسط يديه. ثم بدأ عزف البيانو وأخذ الأولاد يغنون: «كل شيء متألق رائع».

وتألق وجه كايل بالابتسام وهو يرى أباه، وبدا أن صوته ارتفع عن بقية الأصوات.

قرأ كايل من قصيدة «النرجس»، وتلعثم قليلاً فأخذت زاوي تساعده. ثم هبط الستار للاستراحة، وسط التصفيق والسرور الغامر.

التفت كالوم بابتسامة عريضة الى زاوي: «يبدو أنك تعرفين «وردسويرث» جيداً».

- كل إنسان يعرفه، ولكن قصيدته هذه كانت فرضاً منزلياً لكايل منذ ليلتين ما جعلني أحفظها عن ظهر قلب.

مالت أليس عبر زاوي تمسك بكم أبيها: «بابا، هل أعجبك شعري؟».

وأدارت رأسها ليرى ضفيرتها من الخلف.

- إنها رائعة يا عزيزتي.

قالت أليس بابتهاج: «ضفرتها زاوي لي قبل أن نخرج. وأيضاً ضفرت شعر «باربي»».

عندما نظر كالوم الى الدمية، شعرت زاوي فجأة بالخجل. ربما سيفكر في أنه ما كان لها أن تضيّع وقتها على مثل هذه التفاهات، وأصبح هذا الشعور أسوأ عندما مالت سالي على كالوم لكي تنظر الى الدمية هي أيضاً.

ثم قالت بابتسامة متعالية: «هذا جيد جداً يا زاوي، كان عليك أن تكوني مزينة شعر».

أرغمت زاوي نفسها على مبادلة المرأة الابتسام: «آه، يمكنني أن أقوم بأشياء كثيرة».

قالت هذا بثقة عالية بالنفس، فقالت سالي لكالوم: «مديرة منزلك هي كنز يا كالوم. يجب أن تعطيني اسم الوكالة التي أحضرتها منها لكي أطلب واحدة مثل زاوي».

أعاد كالوم الدمية لأليس دون أن يجيب سالي.

خفتت الأنوار مرة أخرى وارتفع الستار. وسمعت زاوي سالي تهمس شيئاً لكالوم. ولمّا ألقت نظرة جانبية رأت رأس المرأة يكاد يلتصق برأس

كالوم، فأغاظها هذا الأمر ما.

لا شأن لها بهذا... لكنها لم تستطع منع نفسها من إلقاء نظرة أخرى سريعة. ركزت زاوي انتباهها على كايل، ولم تشأ أن تصرف ذهنها عنه أكثر من ذلك. ولكن كل حواسها ظلّت موجهة الى ما يحدث بينهما.

لم تتوقف سالي عن التعليق باستمرار. وكان صوتها منخفضاً أبح بشكل لم تستطع معه زاوي أن تفهم ما تقول، لكن ذلك كان إلهاءً لها.

عندما انحنى الأولاد أخيراً للمتفرجين، وأسدل الستار لآخر مرة مع التصفيق العنيف، أعلن معلّم كايل بأن المرطبات ستقدم في القاعة المجاورة.

وعندما ساعد كالوم سالي في ارتداء معطفها، قالت له: «لماذا لا تأتي الى بيتي لتناول الشراب بدلاً من هنا؟».

- لا أستطيع يا سالي. أنا لم آت الى هنا بالسيارة، فقد أوصلني أحد عمال المزرعة الى هنا في طريقه الى بيته، ولهذا عليّ أن أعود الى البيت مع زاوي والولدين.

نظرت إليه سالي تتصنع الخجل من تحت أهدابها السوداء: «حسناً، ربما في أمسية أخرى إذن؟».

- نعم، وأنا متشوّق الى ذلك.

زررت زاوي معطف أليس محاولة عدم الاصغاء إلى حديثهما، متسائلة إن كانت سالي عزباء. إذا كانت لغة الجسد تستحق الاعتبار، فجسد هذه المرأة يصرخ مقدماً نفسه.

- هل نذهب الى القاعة ونتناول كوب شاي؟ ما رأيك يا زاوي؟

- هل لديك مانع في ألا أذهب؟ أنا متعبة قليلاً.

قالت زاوي هذا باسمة وهي تلحظ نظرة السخط في عيني سالي. بدا واضحاً أنها تريد اغتنام هذه الفرصة لتحتكر كالوم لنفسها. ولكن زاوي نالت في ليلة واحدة ما فيه الكفاية من خفق أهداب سالي.

هزّ كالوم كتفيه: «لا، ليس لدي مانع أبداً».

انتظرا قدوم الأولاد من خلف المسرح، ووصل كايل أولاً، وعيناه

تلمعان حماسة: «ما رأيك يا بابا؟».

فقال كالوم بحماسة: «رأيي أنك كنت متألقاً».

وتقدمت ابنة سالي التي بدت شديدة الشبه بأمها، بشعرها الأسود المسترسل، ونظرتها الباردة، وكأنها تشعر بملل من الحياة.

قالت لها زاوي وهم يخرجون: «كنت بارعة في الحفلة».

أجابت بعدم اكتراث: «نعم، أعرف هذا. أفكر في احتراف التمثيل».

قالت سالي: «كلارا موهوبة في أمور كثيرة وهي ممتازة في العلوم. مثلي نوعاً ما عندما كنت في سنها».

قالت كلارا: «أنا الأولى دوماً في صفي!».

ونظرت الى كايل بابتهاج مضيفة: «وكايل دوماً الأخير في صفه».

أجابت زاوي بسرعة وهي تحيط كتف كايل بذراعها: «حسناً، ليس المهم البداية بل النهاية أليس كذلك يا كايل؟».

لم يجب كايل، وإنما غضّ بصره. ولاحظ كالوم كيف خفّت زاوي الى نجدة كايل.

كان الجو ممطراً في الخارج، فوقفوا عند المدخل، وأخذت زاوي تبحث في حقيبتها عن المفتاح. في هذه الاثناء جرّت سالي كالوم جانباً لتكلّمه.

لم تستطع زاوي أن تسمع حديثهما لأن جموع الخارجين فرقت بينهم. لكنها رأت أن سالي وضعت يداً متملكة على سترة كالوم الجلدية. فكرت زاوي بأنهما متناسبان بشكل جذاب، ولكنها عادت فقطبت جبينها لهذه الفكرة. لا، سالي ليست النموذج الذي يحبه. إنها جذابة لكنها باردة. وهو يستحق امرأة لديها... لكنها توقفت عن التفكير في ذلك. ما الذي تفعله؟ لا شأن لك بحياة كالوم الشخصية. وعادت بانتباهها الى الولدين: «كايل، زرّر معطفك من فضلك، لأنك ستبتل بالمطر».

قال كايل بعناد: «أنا على ما يرام».

انحنت زاوي تزرره له، فسألها: «ما الذي تقوله سالي لأبي؟».

- لا أدري، يا كايل. لعله أمر يتعلق بشؤون المدرسة.

قالت كلارا فجأة من جانبهما: «أظنه يطلب موعداً من أمي».

احمر وجه كايل وقال بغضب: «لا، إنه لا يفعل ذلك! لن يطلب من أمك الخروج معه. وأمك لا تعجبه».

- بل هي تعجبه. إنه مفتون بها بجنون.

قالت زاوي تخفف من هذا الجو المشحون بينهما: «والآن، هيا يا أولاد. لا شأن لنا بما يتحدثان به».

وفي هذه اللحظة توجه كالوم نحوهم: «هل الجميع جاهزون الآن؟».

أجابت زاوي محاولة أن تبدو بشوشاً متألقة: «نعم، جاهزون».

حملق كايل في أبيه بينما رفعت كلارا رأسها شامخة وسارت الى أمها.

سألهم كالوم بحيرة: «ماذا حدث؟».

قالت أليس بعدم اكتراث طفلة في الخامسة: «كلارا تظن أنك مفتون بأمها بجنون، لكن زاوي تقول إنكما تتحدثان فقط عن أمور المدرسة».

نظر كالوم الى زاوي ثم عاد ينظر الى كايل: «فهمت، حسناً هذا ليس موضوعاً يتحدث فيه الأولاد مثلكم. يبدو أن كلارا تراقب كثيراً ما يحدث عند الجيران».

قال كايل لأخته بصوت خافت: «أرأيت؟ لقد أخبرتك أن بابا لا تفتنه سالي. فهي ليست لطيفة».

قال كالوم بصوت حازم فيه شيء من نبرة التهديد: «هذا يكفي يا كايل. سالي امرأة جميلة وأنا لا أريد منك أن تتحدث عنها بهذا الشكل».

وأخذ مفاتيح السيارة من زاوي: «فلنذهب».

سار كالوم بهم الى البيت وقد ساد الصمت التام بينهم. كان كايل مستاءً وأليس نائمة. وعندما وقفوا أمام البيت، حمل كالوم أليس من المقعد الخلفي، ولفها برفق بسترته يحميها من المطر. أخذ الولدين رأساً الى السرير، بينما وضعت زاوي ابريق الماء على النار.

عاد بعد ذلك بقليل: «أليس تريد أن تعلم إن كنا سنقيم لها حفلة عيد مولدها الأسبوع القادم».

- ظننتها نائمة؟

- وأنا ظننتها كذلك لكنها استطاعت أن تفتح عينيها لتلقي هذا السؤال.

ضحكت زاوي: «حسناً، ماذا قلت لها؟».

- قلت لها إنني سأسألك.

رفعت حاجبيها: «ليس عليك أن تسألني».

- بل عليّ ذلك. فأنت التي ستهتمين بكل شيء. ستدعو صفها كله.

قالت بابتسامة عريضة: «هذا ليس مشكلة، سأقوم بذلك بكل سرور».

أخذت عيناه تجولان على بشرتها الناعمة: «هل أنت واثقة؟».

وحوّلت عينيها عنه وقد شعرت فجأة ودون سبب، بإحساس عميق بوجوده. ثم سألته: «كم سيصبح عمرها؟».

- ست سنوات. شكراً يا زاوي.

رفعت بصرها إليه فتعلق ببصره: «وشكراً لأنك أخذت مكاني الليلة. قلت إنك تحبين المسرح، لكنني واثق من أنك لم تقصدي بذلك قاعة مدرستنا».

- حسناً، في هذا تغيير حقيقي.

حاولت بهذه الملحوظة السريعة أن تخفف التوتر الذي تشعر به. لشدّ ما تشعر بنفسها منجذبة إليه. نظرة واحدة منه تكفي ليتملكها الضعف.

حاولت أن تصرف ذهنها عن كالوم وتركزه على الولدين: «كان كايل رائعاً الليلة، أليس كذلك؟ لقد تلا ذلك الشعر بمهارة بالغة».

قال بخشونة: «لكن ذلك التصرف الذي بدر منه كان مؤسفاً».

- ما زال صغيراً. ربما عليك أن تتحدث معه عن ذلك.

- وماذا أقول؟ المفروض أن يكون لبابا صديقة؟ إنه غاضب كثيراً ولا أظن هذا سيفيد بشيء.

كبحت الرغبة في أن تسأله: «وهل سالي صديقتك؟».

كانت تحترق فضولاً لكي تعرف الوضع الحقيقي بينهما. وهذا ما جعلها تشعر بضيق كبير.

قالت برفق: «الوقت الآن مناسب لكي تبدأ، مثل أي وقت آخر. أنا أعرف أن زوجتك ماتت منذ سنوات قليلة، لكن لدي شعور بأنه لم يتعوّد بعد على هذا الواقع».

قال مقطباً: «أعرف شعوره هذا ولكنني حسبته تعوّد على ذلك. فقد كان صغيراً جداً عندما ماتت ولم أحدّثه عن هذا بإسهاب».

نظر إليها ثم قال ضاحكاً بأسف: «نعم، أتذكر ما قلته لي مرة عن وجوب التحدث معه عن هذه الأمور، لكنني ظننت أننا تغلبنا على الصعاب».

- ربما كان أصغر من أن يفهم ما حدث. ولكن عليك أن تحاول محادثته الآن.

اقترحت زاوي ذلك وهي تضع فنجانها: «أنت لا تعرف ما يدور في أذهان الأطفال. ربما هو غاضب لأن أمه غير موجودة».

قطب كالوم: «لا أظنه يعتقد أنها تركته بمشيئتها، أليس كذلك؟».

- ربما، وعندما يراك تتحدث الى امرأة أخرى، يظن أنه سيخسرك أنت أيضاً. أنت نفسك قلت إنه يخاف من التغيير. عليك أن تساعده على أن يدرك أنك موجود دائماً لأجله ولن تتركه.

أنهى كالوم قهوته، وأخذ يتفحصها ملاحظاً جمال عينيها الواسعتين، والإخلاص الذي يشع منهما، ونعومة شفتيها. شعرها ممشط الى الخلف بضفيرة بسيطة تبرز ملامحها الكلاسيكية، وتظهر رشاقة رقبتها. ولاحظ خصلة الشعر هذه التي أفلتت هابطة الى جانب عنقها ملتفة على نفسها.

ودون وعي منه، مدّ يده يضع هذه الخصلة خلف أذنها. فلامست أصابعه بشرتها بخفةٍ أرسلت رعشة في كيانها... خفق قلبها ونظرت إلى عينيه مصعوقة بموجة المشاعر التي تتملكها بهذه السهولة.

تمنت لو يعانقها... وشعرت بقلبها يخفق بقوة وألم بين ضلوعها، فلم

تعرف ما تقول أو تفعل. ولم تقل شيئاً بل نظرت إليه فقط... تنتظر.

لم تعرف رجلاً قط له عينان كهاتين العينين السوداوين العجيبتين.

إنهما تنظران الى روحها مباشرة، وتتحدثان إليها بطريقة ساحرة تدفع الدفء الى قلبها.

كان هو الذي تراجع مبتعداً عن هذا الوضع. أنزل يده قائلاً: «سأتكلم معه بهدوء، وأرى إن كان بإمكاني أن أصل الى أعماقه».

حملت كوبيهما الفارغين إلى المغسلة: «سأذهب لأنام الآن، إذا لم يكن لديك مانع».

ـ طبعاً لا، ولا تنسي أنّ غداً هو يوم عطلتك. ميلي ستكون هنا لتصطحب الطفلين الى المدرسة.

فجأة، بدا أنهما يتكلمان بشكل رسمي متكلف. أهي مخيلتها التي صوّرت لها أنه يشعر بإغراء يدفعه الى معانقتها؟ وإذا ازدادت اقتراباً منه، فهل سيقابلها في منتصف الطريق؟ أم أن الجاذبية التي شعرت بها هي في ذهنها فقط...؟.

وشعرت بأنفاسها تضيق وتتمزق.

سألها بهدوء: «هل ستنامين في غرفتي أم في غرفتك؟».

ـ العفو؟

والتفتت تنظر إليه، وتوقف قلبها عن الخفقان.

ـ أتساءل فقط عما إذا جاء العامل اليوم. هل أصلحت النافذة؟

قال مفسراً كلامه وعلى فمه ابتسامة ساخرة.

رباه! ازداد ارتباكها الآن، فقد ظنت للحظة عنيفة غير منطقية أنه يدعوها إلى...

صرفت ما تفكر فيه بحزم: «لا، لم يأت العامل بعد».

هزّ كتفيه: «هذه هي العادة».

ـ ذلك يعني أن عليك أن تبقى في غرفة الضيوف، إلا إذا شئت أن نتبادل؟

ـ لا، سأكون شهماً وأدعك في الغرفة الخالية من تيار الهواء.

ضحكت: «شكراً، حسناً، تصبح على خير إذن».

ـ تصبحين على خير.

وأخذ ينظر إليها تجتاز الردهة وهو يفكر في أنه لو كان رجلاً شهماً حقاً لما ألغى مكالمة صديقها من المجيب الآلي. وتملكه شعور جاد بالذنب.

نظر الى ساعته. ربما عليه الآن أن يتحدث الى فرانسيس ويخبره بأنه غير سعيد بهذا الوضع.

سار الى الهاتف وطلب الرقم. وبينما كان ينتظر رد فرانسيس، وقع نظره على قاعة الجلوس.

لم تضع زاوي الأزهار في أنحائها فقط بل نقلت بعض الكراسي الى الجوانب الأخرى من الغرفة فجعلتها تبدو أكثر إلفة وأجل مظهراً.

رفع فرانسيس السماعة، فقال كالوم بصوت خافت للغاية: «مرحباً، هذا أنا. علينا أن نتحدث عن هذا الوضع».

وفي الطابق الأعلى، أنهت زاوي غسل أسنانها وعندما عادت الى غرفتها، سمعت تمتمة كالوم الخافتة. وجعلتها حميمية الصوت تتوقف.

* * *

٦ ـ لحظة جنون

سارت زاوي بخفة فوق نبات السرخس، والريح تخز وجهها، والهواء قارس للغاية، والسماء صافية من أيّ غيمة تلوّث تألقها.

عندما وصلت إلى قمة التل، أخذت تتأمل المشهد في الأسفل... كانت الجبال تحتضن البيت الريفي الذي بدا ناصع البياض بجانب الحقول الخضراء. وكانت الرياح تصفع الأشجار في البستان بلا رحمة ناثرة براعمها.

جلست على صخرة وأخذت تتأمل، فلاحظت جدولاً صغيراً يلتف أسفل الجبل خلف المنزل ثم يهيم في حقل الى يسار المزرعة.

ومن بعيد، الى اليمين، رأت البحيرة وتساءلت أية بحيرة هي.

وأخرجت من حقيبتها دفتر التخطيط. ستخط بعض المسودّات هنا.

وعندما نظرت الى البيت في الأسفل، رأت ميلي تخرج لتجمع الغسيل عن الحبال. وميلي فتاة ممتلئة الجسم، جذابة متألقة البشرة، ضاحكة العينين. أحبتها زاوي على الفور. وقد شربت الفتاتان القهوة معاً قبل أن تخرج زاوي لتتمشى.

وقد سمعت كل شيء عن سالي فيشر وعن ابنتيها وعن خططها الجادة للحصول على كالوم. لكنها لم تكن بحاجة الى أخبار ميلي لتعلم أن سالي تهتم بكالوم، فهذا واضح كنور الشمس. أما أنها تريد الزواج به، فهذا مجرد تخمين. ربما تريد أن تمضي معه وقتاً ممتعاً فقط، بعد أن عانت من طلاق صعب.

أخذت زاوي ترسم المزرعة بضربات قوية واثقة سريعة من قلمها. ربما كالوم يريد أيضاً شيئاً من المتعة، فقد عانى كثيراً من فقدانه زوجته. وقد أخبرتها ميلي بأن موتها حطمه، لأنهما كانا زوجين سعيدين غارقين في الحب.

وكانت زاوي قد استأذنت بالخروج في تلك اللحظة بالذات، فالتحدّث عن زوجة كالوم الراحلة وهما جالستان إلى مائدته بدا لها فجأة وكأنه تدخّل فاضح في خصوصياته.

ميلي تظن أن كالوم لم يخرج مع سالي حتى الآن. لكن زاوي تشعر بأن هذا سيتغيّر. إنها واثقة من أنه كان يتصل بها الليلة الماضية. لم تتمكن حينذاك من أن تسمع ما يقوله، لكنه بدا حديثاً حميماً خاصاً، أشبه بمكالمات العشاق. وهذا لا يعني أنها حاولت التنصت. فقد توقفت مدة دقيقة فقط. ثم استلقت على سريرها وأخذت تفكر كيف مد يده ولمسها في المطبخ. لا بد أنها تخيلت ما رأته في عينيه... وفكرة أنه كاد يعانقها كانت بعيدة أميالاً عن الحقيقة، فلعله كان يفكر في سالي. كل ما في الأمر أنه كان شاكراً لها نصيحتها البسيطة تلك بشأن ابنه، فيا لها من معتوهة!

ـ مرحباً!

التفتت زاوي بدهشة، فرأت مارك قادماً نحوها. قال بابتسامة عريضة وهو يجلس بقربها: «لقد أدركت أنه أنت. رباه! الصعود إلى هنا كاد يقتلني».

أخذت الريح تعبث بشعره مسبغة عليه جاذبية صبيانية. وانحنى ينظر الى ما ترسم ثم تمتم بإعجاب صادق: «ماذا تفعلين؟ هذا جميل جداً».

فقالت وهي تغلق الدفتر وتعيده الى حقيبتها: «شكراً، إنها هوايتي. ألا تعمل اليوم؟».

ـ أنا ذاهب الى البيت لأرى كالوم. إحدى أفراسه في المخاض، رأيتك في الطريق ففكرت في المرور عليك.

رأت فعلاً سيارته واقفة في الطريق: «هل صعدت كل هذه المسافة لتسلّم عليّ فقط؟ أنت تشعرني بالغرور».

قال ضاحكاً: «حسناً، لدي دافع داخلي. أريد أن أسألك إن كان لديك عطلة ليلة السبت القادم. هناك حفلة راقصة كبيرة في قاعة «أشفيلد هول»».

ترددت فرفع يده: «لا ارتباطات. وبالرغم مما قاله أخي لك، لا تصرفات خاطئة في السيارة».

قالت ضاحكة: «وكيف أستطيع مقاومة مثل هذه الدعوة؟».

ـ شكراً يا زاوي. ستكون ليلة جيدة.

ـ يبدو أنها ستكون ممتعة.

نظر في ساعته: «الأفضل ألا أدع كالوم ينتظر. أتريدين أن أقلّك بسيارتي؟».

ـ لا بأس.

عاد كالوم إلى البيت مع وصولهما.

كان مارك يخبرها بقصة مسلية عن رجل رفض أن يدفع له حسابه. وكيف حصل على نقوده في النهاية. قالت له وهي تلهث من الضحك: «أنت مجنون يا مارك».

فقاطعها كالوم وهو ينقل نظراته بينهما: «نحن نعرف هذا منذ سنوات».

وكالعادة أصابها مرأى كالوم بالاضطراب. انه ينظر في عينيها بطريقة تجعلها تشعر وكأنه يعلم أنها تراه جذاباً.

قال لأخيه: «أين كنت يا مارك؟ لقد تأخرت».

فسأله مارك بذعر: «هل تأخرت كثيراً؟».

هز كالوم رأسه وضحك: «لا، أحسب أن أمامها عدة أيام لكي تلد. تعالى وألقِ نظرة عليها».

ـ تبدو متكدرة نوعاً ما.

قالت زاوي هذا بعطف وهي تمرّ بيدها على جسد الفرس.

ـ كنت ستشعرين بذلك لو حملت هذا الوزن الإضافي الذي تحمله «نيل» المسكينة.

قال كالوم هذا وهو يمرر يده على رقبة الفرس مطمئناً، ثم يدخل مع مارك الى المربط.

فحص مارك الفرس برفق بالغ: «نعم، أظنك على صواب يا كالوم. لا أظنه مستعجلاً للخروج».

نظر كالوم الى زاوي التي وقفت بالباب، وقد تركت شعرها منسدلاً فبدت الشمس تتألق عليه، وتحيله إلى لون القمح الناضج. وكانت ترتدي بنطلوناً أسود وكنزة كشمير سوداء عالية العنق، تكشف عن جمال قدّها الرشيق. وراحت تمرّ بيدها على الفرس وقد انصب اهتمامها عليها.

ـ سننتظر حتى يوم الإثنين ونرى ما سيحدث. فإذا لم تبدأ المخاض بطريقة طبيعية فسأرى ما إذا كنت أمدّ يد العون لها. ما رأيك؟

وعندما لم يسمع مارك جواباً، رفع بصره. رأى نظرات أخيه مركزة على زاوي، ورأى في عينيه تعبيراً لم يره فيهما منذ زمن طويل: «كالوم؟».

التفت كالوم: «آسف نعم، لا بأس بيوم الإثنين، طالما لا مغامرة في تركها».

ـ لا، إنها على ما يرام الآن. إن علينا أن نراقبها فقط.

غادروا الاصطبل، وتوقف مارك ليقول لكالوم بعدم اكتراث: «سألتني سالي إن كنت ستذهب إلى حفلة «أشفيلد هول» ليلة السبت».

ـ لا أدري إن كنت سأتمكن من ترك توم مكاني هنا.

انتصب مارك واقفاً ونظر في عيني أخيه: «إذا ذهبت يمكننا أن نكوّن مجموعة من أربعة؟».

سأله كالوم: «ومن هم الأربعة؟».

ـ أنت تأخذ سالي وأنا آخذ زاوي.

ـ فهمت.

نظر كالوم الى زاوي، ولسبب ما، جعلتها نظراته تشعر وكأنها أحطات.

هز كتفيه: «سأتصل بسالي وأطلب منها الخروج معي. ولكن ليس قبل

أن أسأل أمي إن كان بإمكانها أن تراقب الولدين».

هزّت زاوي رأسها: «آه! أنا آسفة يا كالوم، أتريد مني أن أبقى مع الولدين؟ سأبقى إذا شئت».

قاطعها مارك بسرعة: «لا. لن تبقي، لا يمكنك أن تبقي مع الولدين، فأنت قادمة الى الحفلة معي...».

قاطعهما كالوم بسرعة: «لا بأس. قلت إنني سأسأل أمي».

ابتسم مارك لزاوي: «هذا حسن. والآن، أراك ليلة السبت، هذا إذا لم أرك قبل ذلك».

أومأت، وفوجئت عندما تقدم منها وداعب خدها.

ـ سآتي لاصطحابك حوالى الثامنة.

تساءلت فجأة عما إذا أخطأت بقبول دعوته. إنها تشعر نحو مارك بالمودة، ولكن ليس الى حد أن يأخذ عنها فكرة خاطئة، فهي غير مهتمة به عاطفياً ووافقت فقط على الخروج معه لأنها وجدت في ذلك بعض المرح.

عندما سار الرجلان معاً الى سيارة مارك، تمشّت زاوي الى المرعى تنظر الى الجياد عن قرب.

انضم كالوم إليها بعد ذلك بفترة قصيرة، واتكأ على السياج بجانبها: «أتحسنين ركوب الخيل؟».

ـ نعم، أحسنه.

ـ أريد أن أركب إلى أحد الحقول في آخر المزرعة، إذا شئت المجيء معي! هناك حائط عليّ أن أصلحه.

ابتسمت له: «أحب هذا حقاً، شكراً».

ـ أي حصان تريدين؟ حصاني هو...

ـ الحصان الرمادي على ما أظن. إنه متوتر، وقوي ويناسب الرجال أكثر... هل أنا على صواب؟.

قال ضاحكاً: «لا بأس. أنت ماهرة حقاً».

ـ سآخذ أنا الفرس الكستنائية تلك.

وأشارت الى فرس رائعة في الناحية البعيدة، فتردد كالوم، ثم فتح البوابة: «سأسرجها لك».

مضى وقت طويل منذ امتطت زاوي الخيل، وقد نسيت حبها الكبير للخيول... وكم هو منعش أن تشعر بالهواء يداعب وجهها. انطلقا في البدء بشكل هادىء، ثم عندما أخذت فرس زاوي تتململ بفروغ صبر راحا يتسابقان في البراري وقد تقدمها كالوم قليلاً. كان فارساً ماهراً ومسيطراً على حصانه الفحل القوي بسهولة.

وعندما أبطأ كالوم، قالت له وهي تلهث: «هذا رائع حقاً».

ـ نعم، هذا يجدد النشاط. علينا أن نمشي فترة من هنا.

وأشار برأسه الى طريق صخري يلتف حول غور عميق. وعندما نزلا معاً عن جواديهما وجراهما خلفهما، سألته: «هل هذه كلها أرضك؟».

ـ نعم، حتى تلك الحافة البعيدة المرتفعة.

تمتمت تقول: «يا للهدوء والسكينة والجمال!».

ـ نعم، لا بد لي من الاعتراف بأنني أعشق هذا المكان.

ـ أنت إذن لا تفتقد «شيشيا»، بلدك الأصلي؟

هزّ رأسه: «شيشيا» منطقة رائعة، لكن جمالها الطبيعي قد هذّبته وأصلحته يد الإنسان والحقيقة أنني أحب طبيعة «كامبريان» البدائية في خشونتها ووعورتها».

ـ هل كانت لديك مزرعة في شيشيا؟

ضحك وألقى عليها نظرة جانبية ساخرة: «لا، بل كنت سمساراً في البورصة».

دهشت: «وما الذي جعلك تصبح مزارعاً؟».

ـ لم أقرر في الواقع أن أصبح مزارعاً. وإنما أحببت ابنة مزارع، وهذا حدث ما بين يوم وليلة. كنت ذات يوم ألبس بذلة وأحمل حقيبة أوراق، وإذا بي أجد نفسي هنا، ألبس جزمة طويلة وأساعد والد هيلين.

ـ إذن، هذه مزرعة أسرة هيلين؟

- نعم، وكانت هيلين تدير إصطبلات لتأجير جياد للركوب. كنت أنا في إجازة قصيرة أزور مارك فجئت لأستأجر جواداً. وهكذا تعارفنا.

- ما أعجب هذا! إنه القدر أليس كذلك؟ إنه يجعلك تتساءل عما إذا خطط لحياتك مسبقاً، وكأنك لست سوى دمية في نظام الكون الكبير.

قال ضاحكاً: «ربما. فأنا لم أتصوّر نفسي قط في مزرعة. مارك هو الذي كان يعمل دوماً خارج الجدران. أما أنا فكنت رجل مكتب مع أجهزة الكمبيوتر وأجواء المال والاقتصاد».

- ألا تشتاق أبداً للعودة إلى البذلة وحمل حقيبة الأوراق؟

- أبداً، لكنني ما زلت ألهو قليلاً بالبورصة والأسهم. وهذا شيء حسن، في الواقع، لأنه أنقذ المزرعة من أوقات صعبة مرت بها...

وسكت فجأة. فقد أوشك على القول: «صديق لي في مراكز عالية قد ساعدني أيضاً».

لكنه لم يستطع أن يكمل. فقد تسأله عن اسم ذلك الصديق، ولا يستطيع أن يخبرها بأنه أبوها...

فكر لحظة في أن يخبرها بأنه يعرف فرانسيس... أراد أن يصفي الجوّ بينهما... أراد أن يسألها بصراحة عمن يكون ماتيو، الرجل غير المناسب.

لقد أخبره فرانسيس الليلة الماضية أنه ذهب ليرى صديقها، وهو الآن يدرك أنه ليس من السهل التخلص منه. وقد رجاه قائلاً: «عليك أن تبقيها عندك مزيداً من الوقت. ولا تسمح لها مهما كانت الظروف، بأن تهاتفه».

جادله كالوم قائلاً: «ما هذه السخافة؟ وكيف أستطيع أن أمنعها؟ وأشك في أنها ستبقى وقتاً أطول. فقد أخبرتني أن عليها العودة الى لندن في الأسبوع الثاني من نيسان».

سأله فرانسيس على الفور مشككاً: «ولماذا في الأسبوع الثاني من نيسان؟ أتظنهما جعلاه موعد زفافهما؟».

الحديث والسؤال أزعجا كالوم طوال الليل. فقد تذكر صوت ماتيو في المجيب الآلي وهو يقول إن كل شيء جاهز ليوم الخامس عشر. هل ذلك هو

موعد الزفاف؟ عليه أن يحاول معرفة الأمر.

نظر إليها عالماً بأنها تنتظر منه متابعة الحديث. لن يذكر فرانسيس... وعليه أن يكون حذراً. ما الذي كانا يتحدثان عنه؟ آه، نعم. المزرعة! فقال مغيراً كلامه: «... هذا وكثير من العمل الشاق».

تعثرت على أرض غير مستوية، فمدّ يده يثبتها: «هل أنت بخير؟».

وبقيت يده حول خصرها وقتاً أطول مما يلزم لتثبيتها.

- نعم، آسفة كان يجب أن أنتبه الى موضع خطواتي.

خفق قلبها، وتمنت لو يزداد اقتراباً منها. وتساءلت بذعر... ماذا جرى لها؟ إنها لم تعرف قط رجلاً يؤثر فيها بهذا الشكل... بدا وكأن كل عصب فيها حساس جداً له.

وصلا الى أرض خالية من النبات حيث السياج الذي يتوجب إصلاحه.

جلست زاوي على صخرة تراقبه وهو يعمل. وقالت بعد دقائق: «إنه مبنيّ بطريقة فنية تماماً».

- طريقة «الحجر الجاف» في البناء مهارة تتوارثها الأجيال هنا. وهي تمنح المناظر هنا صفة مميزة. أتريدين المشاركة في العمل بها؟

- سأحاول.

وجاءت تركع بجانبه فعلمها ماذا تفعل.

- لا. ليس بهذا الشكل.

وأمسك يديها اللتين كانتا طريتين ناعمتين في يده: «ضعي الأحجار هكذا. انظري، إن تأثيرها قوي للغاية... أليس كذلك؟».

لكن التأثير الوحيد الذي كانت زاوي تفكر فيه، هو تأثيره فيها. شعرت بقلبها يخفق، وبدوار غريب في رأسها، وتمتمت وهي تنزع يدها من يده: «أظنني أدركت «سر الصنعة»».

أخذ ينظر إليها حتى أنجزت جزءاً من السياج. فقال ضاحكاً: «نعم، هذا ليس سيئاً. أنت سريعة التعلم».

سألته باسمة: «إذن، لو حدث وشعرت بالسأم في لندن، فهل تشغلني

عاملة بناء عندك؟».

قال مازحاً: «نعم، سأضعك على أول القائمة بالنسبة لهذا المركز. ولكن عليك أن تثبتي جدارتك لهذا العمل».

وضعت يديها على خصرها: «من أيّ ناحية؟».

- من كل النواحي. أنا لن أتسامح معك لأنك امرأة، فأنا أؤمن بالمساواة بين الجنسين وعليك أن تعملي مع الرجال.

قالت بثقة: «لا مشكلة».

لكن ذلك لن يناسبها، كما أخذ يفكر وهو يستمر في البناء. فهي غاية في الرشاقة والأنوثة. ومع ذلك تراها تعطي انطباعاً عنها بأنها ذات عزيمة ويمكنها أن تفعل كل ما تريده.

نظر إليها قائلاً: «لكن ما أحتاجه ليس العمل في المزرعة بل في المنزل. ولكنك لن ترغبي في هجر لندن أليس كذلك؟».

- هذا وقف على قوة الدافع.

قالت هذا بهدوء. وأنهت العمل الذي بين يديها ثم عادت تجلس وهي تمسح يديها على العشب.

- وماذا عن صديقك؟ يبدو لي أنّ علاقتكما جادة.

- ما الذي أعطاك هذه الفكرة؟

- لأنك تتصلين به كل ليلة تقريباً.

فضحكت: «أحقاً؟ أنت من كان يتحدث هاتفياً ليلة أمس».

كاد آخر حجر يقع من يده. أتراها سمعته يتحدث مع أبيها؟ ولاحظت الانزعاج الذي بدا في عينيه وهو ينظر إليها. إذن، لا بأس في أن يتحدث هو عن علاقاتها، ولكن عليها ألا تتحدث عن علاقاته. وشعرت بالغيظ. حسناً، لن تدع الأمر يمرّ: «هذا ما أسميه علاقة جادة. فقد قلت لسالي تصبحين على خير قبل ساعتين فقط».

حاول أن يخفي ارتياحه لقولها هذا: «وما الذي جعلك تعتقدين أنني كنت أتحدث الى سالي؟».

حسبها للحظة قد عرفت، وأدهشه الذعر الذي تملكه. ألم يكن يفكر منذ دقائق في إخبارها بالحقيقة؟

قالت باقتناع كلي: «لكنني على صواب في تخميني هذا أليس كذلك؟».

بدت من التأكد بحيث هز كتفيه قائلاً: «ما كان لك أن تصغي الى حديثي».

قال هذا، ساخراً من نفسه وهو يفكر في أنه كان يستمع الى كل أحاديثها الهاتفية.

قالت غاضبة: «لم أكن أصغي».

رآها صادقة بل هي بالتأكيد صادقة وإلا لعرفت مع من كان يتكلم. كيف تورّط في هذا الأمر مع أسرة فرانسيس ومشاكلها؟

أخذ يتساءل شاعراً بعقدة الذنب. لكنه تورط وانتهى الأمر وعليه أن يتابع طريقه، ويحاول أن يعرف ما بينها وبين ذلك الرجل فقال: «على كل حال، فلنعد الى أساس حديثنا. أنا لا أعتقد أن صديقك سيدعك تنتقلين الى هنا، حتى لو قدمت لك وظيفة لمدة أطول».

رفعت حاجبيها: «إنه صديق وليس حارساً».

- إذا كان جاداً معك، فلن يُسعده أن يعلم أنك ستخرجين يوم السبت مع مارك.

هزّت كتفيها: «لا أظنه سيمانع، فالأمر ليس سوى شيء من المرح. وقد أكّد لي مارك أن قصده شريف».

فكر كالوم بحزم في أن قصد أخيه سيكون شريفاً حقاً، لأنه لن يدع له فرصة للانفراد بزاوي. في الواقع، هو ينوي أن يجعل الدعوة رباعية. هذا طبعاً إذا قبلت سالي بذلك. سيتحدث إليها الليلة.

الواقع أن فرانسيس لم يرسل إبنته الى هنا لكي يلقي بها بين يديّ فاتن آخر. وهو يعرف أن أخاه عابث، زير نساء.

سألها، في محاولة أخيرة لجرها الى الموضوع: «أفهم من هذا أن صديقك ليس من النوع الغيور».

ـ لا، هذا غير موجود. إن علاقتنا ليست من هذا النوع. إن ماتيو حلو الطباع وسهل المعشر حقاً.

حلو الطباع... وابتسم كالوم ساخراً: «اعذريني إذا قلت إن هذا ليس حباً كبيراً».

كانت زاوي تسوّي جلستها وقد أغمضت عينيها بسبب وهج الشمس، ولكن عندما سمعت قوله فتحتهما على اتساعيهما ونظرت الى كالوم بحدة، فقال رافعاً يديه: «آسف، ولكن عندما يكون الشخص واقعاً في الحب فهو لا يكون حلو الطباع إن خرج حبيب عمره في موعد مع شخص آخر».

ـ مع احترامي لك كالوم، أنت لا تعلم شيئاً عن علاقتي بماتيو. ولهذا من الأفضل ألا تعلّق. فأنا لا أحلم بأن أتكهن شيئاً عن علاقتك بسالي.

ـ لقد فعلت ذلك منذ دقائق.

ـ لا، لم يحدث. قلت إنك اتصلت بها وهذا كل شيء.

ـ حسناً، على كل حال ما من حاجة للتكهنات.

ـ متأكد؟

ـ نعم فأنا أخرج معها لأول مرة. والحقيقة أنّ ما من علاقة بيننا بعد.

قطب كالوم حاجبيه وعجب كيف تمكنت من أن تحوّل الموضوع إليه.

لم تحدث علاقة «بعد»... ترددت هذه الكلمة في ذهن زاوي لحظة. كان واضحاً أن هذا سيحدث قريباً. ولكن لا علاقة لها بذلك، ولا تدري لماذا تفكر في هذا الأمر. قالت تغير الموضوع: «بالنسبة الى يوم السبت، أتظن أن عليك أن تطلب من أمك البقاء مع الولدين؟».

ـ ولماذا لا؟

ترددت وهي تتذكر أنها وعدت والدة كالوم بألا تخبره عن حالتها الصحية، فقالت: «رأيتها متعبة قليلاً حين قابلتها».

ـ ومتى قابلتها؟

ـ نسيت أن أخبرك فقد جاءت ترى الولدين.

ـ هل ساعدتك بشغل البيت؟

فحملقت فيه: «لا. لم يحصل ذلك. أشعر أحياناً أنك لا تثق بقدراتي».

ـ ليس الأمر كذلك يا زاوي. ولكنّ أمي تعمل كثيراً وأنا أطلب منها دوماً ألا تجهد نفسها، لكنها لا تصغي إليّ.

ـ حسناً، هي لم تفعل شيئاً أثناء وجودي. ودعني أخبرك بأنني أكثر من قادرة على إدارة بيتك ورعاية طفليك. وربما بإمكاني أن أدير مزرعتك في وقت فراغي إذا شئت ذلك.

ابتسم، وفكر في أنها قادرة على ذلك... قال: «لم أقصد قط أن أقول غير هذا».

نظرت إليه بجفاء جعله يشعر بالضيق. لا بأس، ربما استخف بها في البداية، وحكم عليها بقسوة. لكن فرانسيس هو الذي أعطاه هذه الفكرة المسبقة عنها.

حوّل نظره عنها: «حسناً، بما أنني انتهيت هنا، فلنذهب».

ـ نعم، هذا ما أظنه.

ونهضت واقفة، متجاهلة اليد التي مدها إليها، متظاهرة بأنها تنفض العشب عن بنطلونها فلم ترها. ثم جذبت فرسها إليها وأخذت تربت على رأسها وهي تسأله: «هل سنعود من الطريق التي جئنا منها؟».

أشار إلى بوابة بعيدة مجيباً: «يمكننا الذهاب من هذا الطريق، فهو طريق يؤدي مباشرة الى التلة المنخفضة. المشكلة الوحيدة هي أن عليك أن تجتازي جدول الماء، إضافة إلى بعض العقبات».

سمّرته بنظراتها الثابتة: «أتظنني غير قادرة عليها؟».

ـ لم أقل ذلك.

اعتلت السرج: «بإمكاني أن أهزمك».

قال ضاحكاً: «هذا يبدو ممتعاً».

شعرت وهي تنظر الى الهزل في عينيه، بوجهها يحمّر. فقالت تتحداه بمكر ودعابة: «أتعلم؟ سأتسابق معك في العودة الى البيت».

فابتسم: «يمكنك أن تحاولي. لكنني سأنتصر».

- بكم تريد أن تراهن؟

وفكرت في أنها ستلقنه درساً.

فكر لحظة، ثم بدأ يعتلي سرج حصانه: «الخاسر يدفع ثمن خسارته في حفلة السبت».

- هذا حسن. الذي يصل أولاً الى الإصطبل هو الفائز.

لم يكن قد استقر على حصانه بعد حين انطلقت. وقفزت فوق الجزء المنخفض من الجدار وأصبحت في منتصف الحقل الثاني قبل أن يبدأ حصانه بالعدو.

نظر إليها مبتسماً وفي عينيه وميض إعجاب لأنه رأى مدى خبرتها في الركوب، كان شعرها يطير خلفها وجسمها الرشيق يميل الى الأمام وهي تحث الفرس على الإسراع.

لم تجرؤ زاوي على النظر خلفها لترى أين أصبح كالوم إلا بعد أن رأت المزرعة. حينئذٍ فقط أصبحت من الثقة بالنفس بحيث التفتت تبحث عنه، فلم تر له أثراً.

عندما دخلت بها الفرس الساحة خلف المنزل، كانت تبتسم لنفسها شاعرة بالغرور والرضا. لكن شعورها ذاك كان قصير الأجل، لأنها رأت كالوم واقفاً قرب الإصطبل ينتظرها بعدم اكتراث.

سألته بحيرة: «كيف فعلت ذلك؟ لقد سبقتك بمسافة طويلة ولم أرك تمرّ بجانبي».

- القاعدة رقم واحد: لا تتحدي أحداً وأنت لا تعرفين طبيعة الأرض.

أمسك بلجام فرسها حين وقفت بجانبه، ثم مدّ يديه يساعدها على النزول: «لقد خسرت».

- وأنا أعتقد أنك غششت.

ولمست قدماها الأرض، فالتفتت لتجد نفسها قد أصبحت كالشطيرة بينه وبين الفرس.

قال وعيناه تلمعان هزلاً: «هذا اتهام خطير جداً، أرجو أن تسحبيه».

نظرت في عينيه بحزم محاولة أن تتجاهل خفقان قلبها: «لا. لن أفعل هذا، اعترف بأنك أخذت طريقاً قصيرة».

قال ضاحكاً: «التحدي هو أن نعود أولاً الى هنا. لكنك لم تذكري كيفية العودة».

لمعت عيناها تمرداً: «لم أظن أن عليّ ذلك، كان المفروض أن يكون سباقاً ولهذا أظن أنك الخاسر فأنت الذي غششت».

هز رأسه وفي عينيه لمعان ساخر حاد: «هذه الكلمة ليست في قاموسي. فإما أن تسحبي هذا الاتهام، وإما أن تندمي».

وضعت يدها على خصرها باسمة: «وإذا لم أفعل، ماذا ستفعل؟».

بادلها الابتسام. لقد سره هذا التحدي العابث، وتظاهر بأنه يفكر في الأمر لحظة. ثم قال: «لا أدري، يمكنني أن أعيدك الى الغرفة الباردة حيث أتجمد من البرد كل ليلة».

- هل ستفعل ذلك حقاً؟

وبدت لحظة ذاهلة، فضحك ونظر إليها بإعجاب: «أو يمكنني أن أوقع بك انتقاماً أكبر».

وانخفض صوته بشكل أبح مغرٍ للغاية، فتجاوب جسدها كلياً معه. كانت تريد منه أن يعانقها.

تحركت الفرس خلفها، فوجدت نفسها تندفع لتزداد التصاقاً به. التفتت إليه وتقابلت أعينهما.

رأى التحدي في عينيها الجميلتين. كانت تتحداه أن يعانقها وشعر بذلك بقوة فائقة. حدّث نفسه بأن عليه أن يبتعد عنها. ولديه مليون سبب منطقي يجعل معانقتها فكرة سيئة. وفي رأس القائمة حقيقة أنه لم يكن صادقاً معها. كان متفقاً مع أبيها، وهذا وحده يجعله يتردد، ويبتعد عنها. لكنها قريبة جداً منه وجميلة جداً فلم يستطع المقاومة.

انحنى يعانقها بشغف. حدث نفسه بأنه سيجعل العناق يدوم لحظة قصيرة فقط. عناق قصير مختصر للدعابة والإغاظة على أن يضحك بعدها.

لكن المشكلة أنه عندما بدأ لم يعد يستطيع التوقف. إنها امرأة ساحرة تضع يديها على كتفيه مستجيبة لعناقه بشغف مماثل.

وعندما انفصلا أخيراً كانا مذهولين يتبادلان نظرات الذهول والصدمة.

كان هو أول من تحدث وقد التوت شفتاه بابتسامة متأملة: «ما كان لي أن أفعل هذا، أليس كذلك؟».

قالت بصوت غير ثابت: «هذا ما أظنه».

تراجع شاعراً فجأة بالحقارة: «آسف. الذنب ذنبي».

ولم تكن زاوي متأكدة من أنها توافقه رأيه. فقد كان قلبها يحترق بين ضلوعها. كيف يمكنها أن تشعر بكل هذه المشاعر نحو رجل لا تكاد تعرفه. رجل يهتم بامرأة أخرى؟

- هل يمكننا أن نفسر هذا بلحظة جنون وننساه؟

- ربما هذا الأفضل.

وجالت عيناها على ملامحه الوسيمة. المشكلة هي أنها لا تعرف إن كان بإمكانها نسيان ما حدث.

***

٧ ـ عندما يضيء الليل . . .

قالت أليس برزانة وهي واقفة في عتبة الباب: «تبدين جميلة جداً».

التفتت زاوي عن منضدة الزينة لتنظر الى الطفلة: «شكراً يا أليس».

قالت أليس بقناعة: «ستكونين أجمل بنت في الحفلة. هل سيرقص معك بابا؟».

ضحكت زاوي: «لا أدري».

رغم هذا الحديث الخلي البال، كانت تشعر بتوتر. لقد مضى يومان منذ عانقها كالوم. حاولت أن تتظاهر بأن ذلك لم يحدث، لكن الجوّ، منذ ذلك الحين أصبح ثقيلاً بينهما. عندما يكون في البيت، تحاول هي أن تبقى بعيدة عن طريقه أو تحاول جهدها لتجنّب حتى النظر إليه مباشرة. كانت تشعر وكأن هناك قنبلة موقوتة بينهما أو عملاً لم ينته بعد، وكان التوتر يقتلها.

آخر ما هي بحاجة إليه، هو هذه الحفلة الليلة. فكرة وجودها مع كالوم طوال السهرة كانت كافية لرفع حرارتها.

قالت أليس: «وصل عمي مارك».

حاولت أن تظهر شيئاً من الحماس: «هذا جيد. أخبريه بأنني سأنزل بعد دقيقة».

وعندما اندفعت أليس بلهفة لتفعل ما طُلب منها، نظرت زاوي لآخر مرة إلى صورتها في المرآة. لم تكن قد أحضرت معها ثوباً خاصاً، لهذا قصدت متجراً صغيراً في «كيندال» عصر يوم الخميس واشترت ثوباً أزرق بأربطة دقيقة تكشف عنقها البديع وكتفيها الرائعتي اللون. ولإكمال زينتها،

www.elromancia.com

رفعت شعرها إلى قمة رأسها بشكل أنيق للغاية.

الأمر الوحيد الذي أزعجها هو وجود شق في الثوب الطويل من جانب واحد، يكشف عند جلوسها، عن جزء من ساقها.

وأملت بابتسامة ساخرة، أن تبقى واقفة طوال السهرة، ثم تناولت وشاحها وغادرت الغرفة. وفي الممر، ترددت أمام غرفة كايل. كان أبوه قد طلب منه الذهاب الى غرفته مبكراً بعدما أصابته نوبة غضب مفاجئة أثناء العشاء.

طرقت باب الغرفة، ثم أطلت منه. كان كايل جالساً على سريره ينظر الى صفحات مجلته السنوية عن المراكب الشراعية مقطباً جبينه بتركيز عنيف.

سألته بلطف: «كل شيء على ما يرام، يا كايل؟».

لم يجب. فدخلت زاوي الغرفة وجلست بجانبه على السرير.

ـ لماذا لا تنزل الى الطابق الأسفل وتقول لبابا إنك آسف. عند ذلك كل شيء سيكون على ما يرام.

ـ لا.

ـ ماذا جرى يا كايل؟ لماذا لا تخبرني ما يزعجك حقاً؟

تردد الصبي لحظة: «أخبرتني كلارا أمس في المدرسة أن بابا سيخرج مع أمها الليلة».

ترددت زاوي: «فهمت. إنها حفلة فقط يا كايل. سيكون هناك أناس كثيرون. أنت لا تريد أن يشعر أبوك بالتعاسة، أليس كذلك؟».

فهز كايل رأسه.

قالت: «أو بالوحدة؟».

هزّ رأسه مرة أخرى: «أنا لا أريده أن يخرج مع أم كلارا. أنا لا أحب كلارا».

كبحت زاوي ابتسامة. من الغريب أنّ الشعور نفسه يتملكها نحو سالي فيشر ودون أي سبب حقيقي.

ـ هيا بنا الى بابا وقل له تصبح على خير.

مدت له يدها فأخذها كايل متردداً، ونزلا معاً الى الطابق الأسفل.

كان كالوم واقفاً مستنداً بظهره الى رف المدفأة في الصالون، وهو يتحدث الى مارك. نظر الإثنان إليها حين دخلت، بدا الرجلان غاية في الوسامة في بذلتيهما السوداوين. لكن كالوم هو الذي استرعى انتباهها، فقد بدا رائعاً بشكل لا يصدّق. لم تكن قد رأته قط من قبل بغير الملابس العادية، لكن البذلة أظهرت وسامته الحقيقية، وجسمه القوي المتناسق. كان في أحسن مظاهره. فتشنجت معدة زاوي بسبب شعورها بما يشبه الشوق.

ـ أنا آسف، يا بابا.

واندفع كايل نحو أبيه، فحمله كالوم معانقاً، ثم قبّله قائلاً وهو يشدّد من احتضانه: «لا بأس».

وعبر الغرفة، تلاقت عينيه بعيني زاوي لأول مرة منذ عناقهما... فشعرت بقلبها يكاد يقفز من صدرها.

وقال مارك جاعلاً إياها تسلخ عينيها عن كالوم: «تبدين فاتنة».

ابتسمت له: «شكراً، هل انتظرتني طويلاً؟».

نظر الى ساعته: «أبداً. ولكن بما أن سالي تتوقع أن نمرّ عليها في الثامنة والنصف فعلينا أن نغادر الآن».

ـ الأفضل ألا ندع تلك المرأة تنتظر، فهي تعدّ الثواني.

قالت ميلي هذا وهي تدخل قادمة من المطبخ ثم ضحكت بخبث لكالوم. فقال كالوم باسماً لهذه الممازحة: «أشك في ذلك. ولكن لا يفترض بنا ترك أي سيدة تنتظر».

سألته أليس: «هل سترقص مع زاوي يا بابا؟».

قاطعها مارك بابتسامة عريضة: «العم مارك سيرقص مع زاوي الليلة».

انحنى كالوم وقبّل ابنته ثم همس ساخراً: «سأطلب منها ذلك فيما بعد».

حاولت زاوي ألا تشعر بالخجل، فهما يمزحان فقط. ولكن مع ذلك،

لم تستطع أن تحمل نفسها على النظر الى كالوم فشغلت نفسها بوضع وشاحها وتناول حقيبة يدها.

كان الجو بارداً في الخارج، والجليد يلمع على سطح سيارة مارك وزجاجها الأمامي.

ـ لا أحد يصدق أنني جئت إلى هنا لتوّي.

قال مارك هذا متذمراً وهو يفتح السيارة ويزيل الثلج. ودخلت زاوي إلى المقعد الخلفي الصغير بينما جلس كالوم بجانب السائق.

قالت زاوي وهي ترتجف: «في أوقات كهذه يحلو الجلوس أمام التلفزيون بجانب المدفأة».

التفت كالوم إليها: «أتريدين أن أعود الى البيت وأحضر لك دثار السفر؟».

هزّت رأسها: «لا. سأكون بخير حالما يشتغل جهاز التدفئة».

بقي ينظر إليها. أثار ذلك اضطرابها قليلاً لأنها لم تستطع أن ترى التعبير على وجهه في ظلمة السيارة، فيما الضوء الآتي من البيت ينير وجهها.

قال: «أشكرك لحديثك مع كايل الليلة، حاولت ذلك من قبل، لكنه رفض أن يخبرني عما يزعجه. لكن حديثك معه قد أتى بالعجب».

وساد الصمت بينهما لحظة. بدت شاحبة في الضوء المنبعث من المنزل. عيناها خضراوان بشكل لا يصدق، وبدتا تقريباً، أوسع مما ينبغي.

ـ هل أخبرك عما كان يزعجه؟

ـ أخبرته كلارا بأنك ستخرج مع أمها، فشعر بالتعاسة لهذا.

وحوّلت نظرها عنه وهي تتساءل عما إذا كان ينبغي لها أن تقول ذلك: «ربما لأنه لا يحب كلارا».

ـ ربما.

انطلقوا ببطء في الطريق المتعرج. كانت السماء صافية، والبدر ساطعاً غامراً الجبال البعيدة بضوئه الفضي، ومنعكساً في مياه البحيرة العميقة.

رأت زاوي نفسها تتمنى لو كانت وحدها مع كالوم ثم عادت فكرهت

نفسها لهذا التفكير.

لم يكن الطريق طويلاً الى بيت سالي الريفي المبني في ضاحية القرية بشكل بديع. وكانت هي بانتظارهم عند نافذة الطابق الثاني. لوحت لهم بيدها فأوقف مارك السيارة، وما لبثت أن خرجت.

نزل كالوم ليفتح لها باب السيارة الخلفي، فوقفت على أطراف أصابعها وقبلت خده: «مرحباً يا حبيبي».

شعرت زاوي بغيرة عنيفة. حوّلت نظرها منزعجة. إنها هنا لأسبوع آخر فقط، ولا ينبغي أن تحشر نفسها في حياة كالوم العاطفية.

ـ مرحباً يا مارك. كيف الحال؟

وجلست بجانب زاوي. كان عطرها قوياً خانقاً ما جعل زاوي توشك أن تعطس.

ضحك مارك: «ليس سيئاً، متطلعاً الى الأمام على الدوام».

نظرت سالي الى زاوي باسمة ببرودة بالغة: «لم أتوقع أن تكوني هنا. من هي جليسة الولدين يا كالوم؟».

ـ ميلي.

قال مارك: «لماذا لم تطلب ذلك من الماما؟».

ـ قالت زاوي إن ماما متعبة قليلاً لهذا طلبت ذلك من ميلي.

تدخلت سالي قائلة لكالوم: «كلام فارغ. رأيت أمك في القرية منذ أيام وكانت في غاية الصحة والنشاط».

تمتم كالوم: «لا أدري، يا سالي. زرتها هذا الصباح فلم أرها بخير. وأنا في الواقع، قلق عليها».

وصلوا إلى منزل فخم من الطراز الجورجي يتألق بالأنوار. كان منزلاً رائعاً يليق بالملوك، ويشبه المنزل الذي قد تتخيله زاوي لاجتماع الصيادين.

أوقف مارك السيارة، ثم انضموا الى حشود الناس وهم يصعدون الدرجات الأمامية.

أحد المستخدمين استلم منهم المعاطف والأوشحة ثم تابعوا طريقهم في

المدخل الفسيح الى قاعة الرقص الرائعة.

لاحظت زاوي أن سالي شبكت ذراعها بذراع كالوم. كانت تبدو جذابة للغاية في ثوبها الأسود المخملي الطويل. وكانت ترفع وجهها إليه باسمة، وتحدثه بحميمة.

ـ إنهما منسجمان كل الانسجام. أليس كذلك؟

قال مارك ذلك وهو يتبع نظراتها.

ابتسمت قائلة وهي تنظر بعيداً: «نعم، إنهما كذلك».

قال مكشراً: «يبدو أن المثابرة تنفع في النهاية. منذ أشهر وسالي تطارد كالوم دون تعب ليخرج معها مما كان يضايقه في الواقع».

رفعت زاوي حاجبيها: «هل أخبرك كالوم بذلك؟».

فقال ضاحكاً: «طبعاً لا، لأن كالوم أكثر شهامة من أن يقول شيئاً كهذا. لكنها تحاول الايقاع به منذ فشلت علاقتها مع الطبيب «تيد فورستر»».

عزفت فرقة موسيقية في آخر القاعة موسيقى تصم الآذان حتى أن زاوي اضطرت الى الميل عليه أكثر لكي تسمع. وأشار مارك برأسه الى رجل ذي مظهر ممتاز، طويل، رمادي الشعر، قائلاً:

ـ إنه هنا الليلة. لقد تركت سالي زوجها من أجل فورستر هذا.

ـ منذ متى انفصلت عن فورستر؟

ـ لا أدري. ربما منذ شهرين.

ـ هذا ليس وقتاً طويلاً، ولعلها ما زالت في فترة الارتداد.

هزّ كتفيه: «ربما. لا يهمنا ما دام كالوم يستمتع بوقته. إنه يدفن نفسه حياً في تلك المزرعة منذ ماتت هيلين».

ـ حسناً، عليه أن يكون مع ولديه أولاً، فهما أيضاً حزينان كئيبان.

أومأ مارك وحامت عيناه على وجهها لحظة وكأنه يريد أن يعرف كل شيء عنها: «أنت تحبين الولدين حقاً، أليس كذلك؟».

ـ نعم، إنهما ولدان جميلان.

ـ وكالوم؟.

تمنت زاوي لو أن الاحمرار لم يكسُ وجهها: «إنه... لابأس به».

أومأ مارك وابتسم.

جاء كالوم لينضم إليهما. وكان يحمل أربعة أكواب عصير. وقال: «هناك مائدة فهل نجلس؟».

تبعاه الى حيث كانت سالي تنتظر، فلاحظت زاوي أن سالي لم تبد مسرورة لانضمامهما إليهما.

ناول أول كوب لزاوي فتلامست يداهما وشعرت بالشوق إليه حتى أخمص قدميها.

عزفت الفرقة أغنية حب مشهورة فاندفعت سالي تقول: «أنا أحب هذه الأغنية. أرقص معي يا كالوم».

أخذت زاوي تنظر إليهما وهو يصحبها الى باحة الرقص ثم حولت بصرها بسرعة عندما أخذت سالي تتنقل بين ذراعيه ورأسها على صدره.

عليها أن تبذل جهدها لتبدو مشرقة بشوشاً، فقالت لمارك: «ما الذي عناه كالوم بقوله إن ذلك لهدف جيد هذه الليلة».

ـ يعني أن أرباح الحفلة ستذهب للمؤسسات الخيرية.

ـ فهمت.

فقال وهو يمسك بيدها: «أتريدين أن ترقصي؟».

نظرت الى باحة الرقص المحتشدة بالراقصين فلم تستطع أن ترى سالي ولكنها رأت رأس كالوم مرتفعاً فوق الجموع.

ـ دعيني أنبهك فقط إلى أني لست رشيقاً.

ـ الآن تخبرني.

ـ الى متى ستبقين في العمل عند كالوم؟

ـ حوالى أسبوع آخر أو نحوه.

ـ ألا يمكنك البقاء أكثر من ذلك؟

ـ ربما عدة أيام ليس أكثر.

أجابته بذلك وهي تفكر في معرضها الفني، فعليها أن تعود الى لندن من أجله. أخذ قلبها يخفق للتفكير في معرضها. لقد بذلت جهداً بالغاً في إخراج رسومها إلى الوجود. وحدثت نفسها بأنها ستباع حتماً. عليها أن تكون واثقة من نفسها، شرط أن تعود الى لندن في الوقت المناسب لتتأكد من أن الأمور على ما يرام. لا يمكنها أن تترك كل الأمور لماتيو.

تمتم مارك: «هذا مؤسف جداً».

وأدارها فاستطاعت أن ترى كالوم مرة أخرى. كان يقول شيئاً لسالي وقد احنى رأسه وشفتاه قريبتان من أذنها.

وعادت زاوي بانتباهها بحزم الى مارك.

ـ أظنك متشوّقة كثيراً للعودة الى المدينة؟

هزّت كتفيها: «نوعاً ما. أنا أحب زيارة المتاجر الكبرى. لكن، بين الحين والآخر، ارتاح للابتعاد عن حركة المرور والسير المحموم».

ضحك: «مثل كالوم تقريباً. لم أظنه قط من النوع الذي يعشق الريف. لقد أدهشني حقاً».

ـ أخبرني كيف جاء الى هنا في إجازة قصيرة، انتهت ببقائه.

قال بجفاء: «انتهت بإخراج المزرعة من ورطة مالية. كان والد هيلين يحاول أن يبيعها منذ زمن طويل. لكنه لم يجد من يشتريها. كان متجهاً نحو الإفلاس، وإذا بكالوم يأتيه منقذاً».

ـ لا بد أنه كان غارقاً في حب هيلين.

ـ نعم، كانا زوجين رائعين. يخطر لي أحياناً أن عليه أن يبيع الأملاك ويبدأ حياته مرة أخرى في مكان آخر. إن في تلك المزرعة ذكريات كثيرة.

ـ لكنها ذكريات سعيدة.

ـ ذلك لا يجعلها أقل إيلاماً. لكن كالوم لا يوافق على المغادرة، كما أن وضع المزرعة جيد الى حد غريب.

قالت ضاحكة: «هذا عائد في أكثره الى دماغ كالوم الاقتصادي».

ـ وإلى اتفاقية مربحة مع سلسلة من أكبر متاجر السوبر ماركت. إن

لدى كالوم أصدقاء من أعلى المستويات.

ـ كل شيء، مهما كان صغيراً ينفع.

انصرف ذهن زاوي عنه الآن وأخذت تنظر في أنحاء المكان تبحث عن كالوم فلم تره.

وتحولت الموسيقى الى عزف ديسكو، فقال مارك ضاحكاً: «هذه إشارة لي لكي أجلس».

عندما عادا الى المائدة كان كالوم هناك وحده.

أمسك مارك الكرسي لزاوي لتجلس، ولم يجلس: «سأتناول طعاماً خفيفاً. أتريدان شيئاً؟».

هزت زاوي رأسها نفياً.

عندما تركهما مارك وحدهما، ساد صمت غريب بينهما للحظة، مليئاً بموسيقى الديسكو التي بدت متناسبة مع خفقات قلب زاوي.

نظرت إليه باسمة: «شكراً على العصير».

فقال ضاحكاً: «لا شكر على واجب».

وبدا في عينيه السوداوين لمعان ماكر وهو ينظر إليها: «أتعرفين أنك مثيرة؟».

ـ لا أدري ماذا تعني.

ونظرت إليه بعينين واسعتين بريئتين، راجية ألا يكون وجهها متورداً.

ابتسم: «تبدين رائعة للغاية الليلة».

قال هذا بوضوح رغم الموسيقى فسرت الدماء حارة في شرايينها.

قالت بمرح: «ربما لا يفترض أن تقول لمستخدمة عندك إنها رائعة الجمال».

ضحك: «حسناً، أحب أن أخالف التقاليد».

أومأت: «وأنت تفعل هذا حتماً. أين رفيقتك؟».

هزّ رأسه: «لا أدري. ربما تركتني».

ـ أشك في ذلك.

وسلخت نظراتها عنه وأخذت تبحث بين الجموع. ولكنها لم تجد أثراً لسالي أو لمارك.

سألها فجأة: «ما رأيك في الرقص؟ لقد وعدت أليس بأن أطلب منك ذلك».

ترددت. إنها تريد أن ترقص معه من كل قلبها، لكن فكرة التصاقها به أخافتها. وذكرى عناقهما ذلك اليوم ما زالت في نفسها. كانت تخاف إذا احتضنها أن ترغب في اختبار تلك الأحاسيس مرة أخرى، وفي هذا المكان.

سألها ضاحكاً: «ماذا حدث؟ ألا تشعرين بالطاقة لذلك؟ ألست المرأة التي أخبرتني أنّ بإمكانها أن تدير بيتي وترعى أولادي وتدير المزرعة في وقت فراغها؟ لا تخبريني بأنه لم يعد لديك طاقة للرقص على أنغام الديسكو؟».

بادلته الضحك: «يمكنني أن أهزمك بالرقص يا كالوم».

ـ يبدو هذا ممتعاً.

وضعت يدها في يده وسمحت له بأن يقودها إلى باحة الرقص. وجدته راقصاً بارعاً، وازدادت اقتراباً منه وجسدها يتمايل برشاقة.

أخذ يراقب حركاتها، وليونة قوامها. كانت حركاتها مثيرة مغرية حميمة، ومع ذلك بدت وكأنها لا تعي ذلك.

أخذت أنوار المسرح الملونة تغمرها باللون الأزرق ثم الذهبي. وعندما أبطأت الموسيقى، مد يديه وأخذها بين ذراعيه. لمسة يده لخصرها جعلتها تشعر وكأنها تحترق. حاولت جاهدة أن تتجاهل السعادة التي تشعر بها، لكن ذلك كان مستحيلاً فتشوّش قلبها وتسارعت دقاته.

ـ هذا أحسن.

تمتم بهذه الكلمات في أذنها، مسبباً فيضاً من البهجة في كيانها.

ـ لا تخبرني بأنك متعب.

بطريقة ما استطاعت أن تلقي بهذه الملاحظة الجريئة. فأجاب: «لا، أبداً. يمكنني أن أرقص الليل بطوله».

أخذت زاوي تفكر حالمة في أنها هي أيضاً تستطيع ذلك وأخذت تسمح

لنفسها بالتمتع بالبهجة التي تشعر بها بين ذراعيه.

كانت تتنفس الكولونيا المنعشة التي يضعها، ورأسها ملقى على صدره. وفجأة، تساءلت كيف سيكون شعورها لو ضمها إليه أكثر...

هذه الفكرة جعلت أجراس التنبيه ترن بعنف في رأسها، فقالت فجأة وهي تبتعد عنه: «علينا أن نجلس. سيتساءل سالي ومارك أين عسانا نكون».

لم يجادلها، بل وضع يده على ظهرها يقودها الى مائدتهم.

كانت سالي ومارك مستغرقين في الحديث، ورأساهما متقاربان: «ها قد جئتما».

قالت سالي هذا وهي ترفع بصرها. كانت عيناها متألقتين للغاية وهما تنتقلان من كالوم الى زاوي.

قال كالوم ضاحكاً: «كانت زاوي تريني مقدار طاقتها».

تقابلت عينا زاوي مع عيني سالي المتألقتين غير الودودتين.

ـ حسناً، من الممتع أن يدخل الشخص في روح الحفلة.

قالت زاوي هذا ببشاشة، بينما انكمشت في داخلها لتفاهة ما قالت. كان واضحاً أن سالي غاضبة كثيراً لأنها رقصت مع كالوم.

قالت سالي تخاطب كالوم متجاهلة زاوي: «هل ستقيم حفلة عيد ميلاد لأليس؟».

ـ نعم، الإثنين بعد المدرسة. عليك أن تحضري الفتاتين.

ابتسمت سالي راضية وقد راق مزاجها: «سأنتظر ذلك بشوق. وسأساعد في تنظيم الحفلة إذا شئت؟».

ـ حسناً، إنه مجال زاوي. أتريدين مساعدة يا زاوي؟

ابتسمت زاوي للمرأة بأدب: «أظنني أعددت كل شيء. شكراً».

قالت سالي لكالوم: «أنا وأنت إذن، يمكننا أن نجلس مرتاحين بينما الأطفال يستمتعون بوقتهم».

تناولت زاوي كوبها. صورة سالي وهي تتسكع في حفلة يوم الإثنين لم

تجد ترحيباً لديها.

احتكرت سالي بعد ذلك انتباه كالوم كلياً. فراحت تتحدث عن أناس في القرية لا تعرفهم زاوي، مما جعلها معزولة، لكن هذا لا يعني أنها انزعجت، فقد كان مارك مرافقاً حسناً.

لكنها، من وقت لآخر، كانت تفاجئ كالوم يحدق إليها، عند ذلك كانت تشعر بأنه لم يعد لأي أمر آخر أية أهمية، وكأنهما وحدهما، هما الاثنين. وتملكها إحساس بالغ الغرابة جعلها ترتعش توقعاً لأمر لم تستطع أن تفهمه.

عندما انتهت السهرة، دُعي الجميع الى الخارج للتفرج على الألعاب النارية. وكان ذلك ختام الحفلة.

- من الذي نظم كل هذا؟

ألقت زاوي هذا السؤال وهم يتجهون إلى ردهة الدخول.

- اللورد «ستانبري» صاحب هذا البيت.

أجابها كالوم بذلك وهو يساعد سالي على ارتداء معطفها.

قالت زاوي مقطبة جبينها: «هذا الاسم مألوف».

- أظن ذلك، فهو أحد أغنى الرجال في البلاد. الحفلات التي اعتاد إقامتها كانت رائعة ذات يوم.

سالي هي التي أسرعت تجيبها بذلك. فقال مارك ضاحكاً: «حسناً، هذه الحفلة مذهلة».

ألحّت سالي قائلة: «نعم، لكنها كانت أحسن. كانت ذات يوم خاصة جداً لا يُدعى إليها سوى صفوة المجتمع. في تلك الأيام كانت المستويات عالية طبعاً وليست كهذه الأيام حيث يستطيع الخدم أن يشتروا تذاكر».

أدركت زاوي الإهانة، لكنها لم تشعر بغير التسلية. فقالت توافقها ساخرة: «رحم الله الأيام الماضية حين كان الفلاحون يلتزمون حدودهم ومركزهم. هذا صحيح يا سالي. المستوى ينخفض حتى يصل الى ملاجىء الفقراء كما أرى».

رأت الهزل في عيني كالوم، لكن سالي لم تجد ذلك مسلّياً، فرفعت رأسها باحتقار وترفع ثم نظرت الى كالوم باسمة: «هل نذهب الى الخارج؟ لا نريد أن تفوتنا الألعاب النارية».

وعندما سارت سالي مبتعدة ورأسها في السماء، تمتم مارك: «سبق أن رأينا مشهداً ممتعاً أكثر».

وعندما لحقت زاوي بهما مع مارك، قالت له بصوت خافت: «إنها متوترة قليلاً، أليس كذلك؟».

أومأ مارك: «نعم، إنها متقلبة المزاج، سريعة التأثر».

وقفت زاوي لتحكم وشاحها حولها، فتاهت عن مارك. تابعت سيرها مع مجموعة من الناس نحو المرج الأخضر متوقعة الالتقاء به في أية لحظة. ولكن عندما أصبحت في الحديقة، أصبح صعباً عليها رؤية أحد، فقد كان المكان مظلماً والناس كثيرين. وبدلاً من الاختلاط بالجموع سارت جانباً.

رأت حديقة إيطالية تنعكس على نافورتها وتماثيلها أضواء الحديقة. جمالها حوّلها عن وجهتها، فتابعت سيرها إليها، مستمتعة بتلك العزلة لفترة. وهناك وجدها كالوم بعد دقائق، مستغرقة في أفكارها وهي تنظر الى تمثال أسد. جفلت لسماعها صوته العميق: «بدأنا نقلق وخشينا أن نكون قد فقدناك».

التفتت إليه: «آسفة. لم أستطع أن أعثر عليكم ثم ألهاني هذا المكان».

ابتسم: «هذا ما لاحظته. بدوت بعيدة أميالاً. ما الذي كنت تفكرين فيه، على كل حال؟».

وضعت يدها على تمثال الأسد الذي بدا وكأنه سيقفز: «إنه رائع جداً، أليس كذلك؟».

فنظر الى الحيوان: «نعم».

قالت متأملة: «إنه يذكرني بأبي».

فرفع حاجبيه: «لماذا يذكرك به؟».

ضحكت وابتعدت عن التمثال: «ربما لأن أبي لا يفارق ذهني مؤخراً.

أو ربما لأن برج أبي هو الأسد أو لأنه مستبد ومتسلط، أو ربما لأن لديه تمثالاً مشابهاً في حديقته».

ـ لا بد أنها حديقة رائعة.

ـ وهي كذلك.

سألها برفق: «لماذا تفكرين في أبيك كثيراً؟».

ـ ربما لأننا نخاصمنا...

ـ لماذا؟

انتظر أن تتحدث عن ذلك، وأراد أن يسمع وجهة نظرها.

هزّت كتفيها: «لا أريد أن أسبب لك السأم».

ـ لن أسأم إذا شئت أن تتحدثي. ألست أنت التي أخبرتني أن الحديث عن المشكلة يساعد في علاجها؟

نظرت في عينيه وابتسمت: «نعم، قلت هذا... أليس كذلك؟ إنه تقدم بالغ مني».

قال ضاحكاً: «أنت جريئة نوعاً ما إنما بهدوء».

ضحكت: «لست كذلك في الحقيقة. حاولت دوماً أن أمتثل لأوامر أبي وأن أكون ابنة مطيعة...».

قاطعها ضاحكاً: «ما عدا عندما كنت على وشك أن تدفعيهم إلى طردك من المدرسة».

نظرت إليه مازحة: «أخبرتك بهذا بشكل سري».

فقال يطمئنها ضاحكاً: «لا تخافي. أفعالك السيئة في مأمن عندي».

ضحكت ثم أصبحت جادة فجأة: «ولكن دع المزاح جانباً، يا كالوم، فأنا في الثالثة والعشرين وأبي لا يدعني أتابع حياتي من دون أن يحاول وضعي في قالب غريب عني. يريد مني أن أستلم عمل الأسرة، لكنني فاشلة في الأرقام، وأكره العمل في مكتب».

قال بهدوء: «ربما يريد لك الأفضل».

قالت بسرعة: «لا شك في هذا. ولكن ما يظنه الأفضل، وما أفضّله أنا

أمران مختلفان جداً. مرّ في حياتي صديقان جادان، فتخلص منهما بشرائهما بالمال. واحد حصل بشكل غامض على وظيفة هامة في مكتب أبي في أدنبره، والثاني أنهى علاقته معي ثم رحل بسيارة فخمة».

قال كالوم محاولاً أن يتجاهل شعوره بالذنب: «حسناً، إذا استجابا للرشوة فهذا يعني أنهما لا يحبانك وأنّ لا قيمة لهما».

قالت وهي تنظر إلى يديها: «هذا صحيح لكنني كنت سأتمكن من معرفة ذلك بنفسي. فأنا لم أكن بحاجة الى تدخل أبي».

أمسك كالوم بيديها فإذا هما باردتان فأخذ يفركهما بذهن غائب، محاولاً أن يدفئهما: «نحن الآباء نبالغ في حماية أولادنا أحياناً، لكننا نقوم بذلك عادة لأننا نحبهم».

قال هذا مازحاً، فهزت رأسها: «أنا أعرف أن أبي يحبني، وأنا أحبه، لكنه يضغط علي بحبه أكثر مما ينبغي. وهو لا يفهم أنني الآن امرأة ناضجة. آخر خصام بيننا حصل لأنه وجد الزوج الرائع المناسب لي».

رأت الدهشة التي بدت على وجه كالوم، فضحكت: «أعلم أن هذا مضحك، لا يقبله عقل، ولكن هذا ما قاله لي. وعندما قلت له إن بإمكاني أن أجد زوجاً مناسباً لي، ثار في وجهي».

هز كالوم رأسه بذهول: «حسناً، هذا أمر منافٍ للعقل».

لم يقل له فرانسيس شيئاً كهذا ولو فعل، لما قبل كالوم بلعب أي دور في هذا.

ـ ومن هو ذلك الرجل؟

قالت عابسة: «لا أدري. فأنا لم أقابله ولا أريد ذلك».

جالت عيناه عليها تتأملان جمال وجهها والحزن في عينيها. وسألها: «وماذا عن الصديق الذي تخرجين معه حالياً؟ هل يدري بكل هذا؟».

ـ ماتيو؟ نعم، ويظن ذلك منافياً للعقل أيضاً.

ـ أتظنين أن أباك سيحاول شراؤه هو الآخر؟

هزّت كتفيها: «لا أدري. ولكنه سيضيّع وقته لو حاول ذلك. علاقتي

بماتيو مختلفة جداً عن كل علاقاتي الأخرى».

بدأت الألعاب النارية فنظرا معاً إلى السماء شاردي الذهن.

يبدو أن زاوي واثقة كل الثقة من صديقها، كما رأى كالوم عابساً. وتساءل عن حقيقة ماتيو؟

إنه يوافقها في أمر واحد وهو أن موقف أبيها بالغ القسوة. ولكن أتراه يعلم شيئاً عن ماتيو هذا، شيئاً لا تعلمه هي؟ كان في والد زاوي صفات كثيرة ولكن الحماقة ليست إحداها. فهل سيجازف بتدمير علاقة جادة من أجل نزوة طارئة؟ وعدا عن كل هذا، فرانسيس رجل مريض. فهل هذا الواقع دفعه الى التفكير في توفير أمان دائم لابنته؟ من السخافة محاولة ترتيب أمر زواج ابنته، ولكن هذا لا يعني أنه مخطىء بالنسبة الى ماتيو.

قطب كالوم جبينه وتساءل إن كانت تعلم أن أباها مريض كثيراً. وعما إذا كان عليه أن يخبرها وينتهي من هذه التمثيلية، ويتحدث معها بصدق. إنه حقاً يريد ذلك، والشعور بالذنب بدأ يأكله حياً.

حوّلت بصرها عن الضوء الذهبي الذي انتشر بشكل مثير على صفحة السماء السوداء المخملية، وقالت برقة: «على كل حال، أنا آسفة لأنني بعثت الضجر في نفسك بكل هذا».

ـ أنت لم تبعثي الضجر في نفسي.

ـ تُرى إن بقيت حازمة في هذا الموضوع مع أبي، فهل سيدرك أنه غير قادر على التلاعب بحياتي؟ ما رأيك؟

رفعت بصرها إليه وعيناها واسعتان ملؤهما الثقة وكأنها حقاً تكن له المودّة، وكأنها متلهفة فعلاً لنصيحته.

وتصور التغيّر في ملامحها عندما تعلم أنه كان متفقاً مع أبيها. ستثور غاضبة، ومعها الحق. ولكن رغم هذا، شعر بأن عليه أن يخبرها.

ـ اسمعي يا زاوي. هناك أمر عليك أن تعرفيه...

وإذا بمفرقعة تنفجر فوق رأسيهما، تبعها رشاش من الضوء الأحمر ملأ الجوّ، فازداد اقترابها منه.

ـ نعم؟

ـ الأمر هو...

ـ نعم؟

إذا أخبرها فماذا سيحدث؟ ستعود الى لندن لتتجه مباشرة إلى ذراعي ماتيو غير المناسب. وأسرع ذهن كالوم في العمل فجأة. هل هذا ما يريده؟ إذا كان ماتيو هذا كما وصفه أبوها بالضبط، فلن تنفعها صراحته أبداً.

نظر في أعماق عينيها الجميلتين، وابتسم مداعباً: «المشكلة هي أنني لا أدري ما إذا كانت نصيحتي ستنفعك لأن برجي هو الأسد أيضاً».

فضحكت.

لم يكن الوقت مناسباً. وعزّى نفسه بأنه فعل الأمر الصواب. إنها متكدرة الآن. وعليه أن يخبرها حين تكون أكثر استرخاء فلا تعود راكضة الى ماتيو غير المناسب الذي قد تتزوجه بسبب الغضب وجرح الكرامة.

ابتسمت له وعيناها تتأملان وسامة ملامحه: «شكراً، لأنك حاولت رفع معنوياتي، ولأنك أصغيت الى مشاكلي». ووقفت على أطراف أصابعها وفي نيتها أن تقبله على خده. كانت حركة متهورة لم تفكر فيها حقاً، لكن الإحساس الذي اشتعل داخلها كان أكثر تفجراً من المفرقعات حولهما. أخذ كالوم يعانقها، فازدادت اقتراباً منه شاعرة بقلبها يتخبط بين ضلوعها، وشعرت بالسعادة بسبب ما تملّكها من أحاسيس.

صوت يناديهما جعلهما يتفرقان. حدقا في بعضهما البعض بصمت، حابسين أنفاسهما.

تقدّم مارك نحوهما، ولاحظ طريقة وقوفهما متقاربين وذراع كالوم حول خصرها.

قال ضاحكاً: «كنا نبحث عنكما في كل مكان. وسالي ترغي وتزبد غضباً».

تراجع كالوم عن زاوي وسأله بهدوء: «ولماذا كل ذلك؟».

أجاب مارك ضاحكاً: «الله أعلم».

وعندما تبعا مارك الى حيث الجموع، تأخرت زاوي عنهما، فسألها كالوم بهدوء: «هل أنت بخير؟».

ـ نعم طبعاً.

لم تستطع زاوي أن تحمل نفسها على النظر إليه، فقد كان العناق رائعاً، لكنها هي التي بدأت ما جعلها تشعر بخجل وارتباك بالغين. فهي ليست رفيقة كالوم في موعد الليلة بل سالي. وألقت عليه نظرة جانبية سريعة، ثم قالت متوترة، شاعرة بأن عليها أن تعالج الموضوع قبل أن يصلوا الى حيث سالي: «إسمع، بالنسبة إلى ذاك العناق، أنا آسفة. كنت متكدّرة... وكنت أنت عطوفاً... للغاية...».

ضاقت عيناه: «عطوفاً؟ حسناً، أنا فقط رجل طيب».

قال هذا متهكماً. ولكن كلمة طيب لا يمكن أن تصف ما شعرت به نحو كالوم حين عانقها بذاك الشغف، ابتسمت له وهي ترتعش وقالت: «نعم، أنت كذلك».

مجرد رجل طيب؟ يا له من تبخيس... إنها حقاً نكتة العام.

* * *

٨ ـ سرّ الخامس عشر

كانت زاوي قد أنهت ترتيب الأسرة لتوّها عندما سمعت كالوم يناديها.

ـ أنا قادمة.

وركضت تهبط السلم.

كان كالوم في المطبخ، فقالت له وهي تنظر الى ساعة الحائط: «لم أتوقع عودتك بهذه السرعة».

إنها الساعة العاشرة والنصف، وقد ظنت أنها لن ترى أحداً قبل أن يحين موعد إحضار الولدين من المدرسة.

ـ عليّ أن أذهب الى «ويندرمير» لشراء هدية عيد ميلاد أليس.

وجالت عيناه على مائدة المطبخ المليئة بالأطعمة المحضرة في المنزل. ومدّ يده وسرق لوح شوكولا.

ـ هيه... ارفع يدك. الطعام للحفلة.

ابتسم لها: «ألم تقولي إن مولود برج الأسد شخص متسلط. هذا يبدو مغرياً للغاية. ألا يمكنني أن أحصل على كعكة؟».

وضعت يديها على وركيها: «لا، سنأكل منها في الحفلة».

لكنه أخذ واحدة. وراح يمضغها متحدياً، وهو يغيظها ضاحكاً.

هزّت رأسها: «الأسد هو برجك حتماً».

ـ وأنا فخور به.

ومسح يده ببنطلونه الجينز: «يبدو أن كل شيء هنا على ما يرام».

أومأت: «ولكن جهاز التسخين في الحمام كان معطلاً فأصلحته...».

www.romancia.com

ـ كان عليك أن تدعيني أراه، فأنت لديك ما يكفي من العمل.

ـ لا، توليّت أمره، كل شيء جاهز وينتظر الحفلة.

ـ أتحبين إذن أن ترافقيني الى «ويندرمير»؟

جاءت الدعوة مفاجئة فردت: «حسناً...».

ـ أنا بحاجة الى نصيحة بالنسبة للهدية.

ـ آه، لا بأس إذن. سأمشط شعري وأضع بعض أحمر الشفاه. لن أتأخر.

استقرت عيناه على شفتيها الناعمتين: «لا، لا تتأخري».

شيء ما في بحة صوته جعل قلبها يخفق، وذكّرها بذاك العناق المسروق تلك الليلة.

عبست زاوي. لم تشأ أن تفكر في ذلك. فقد حاولت جاهدة أن تتصرف وكأن شيئاً لم يحدث. وهكذا اندفعت تصعد السلم.

نظرت الى نفسها في المرآة. كانت تلبس بنطلوناً رمادياً وكنزة بيضاء عالية القبة، فأسرعت تخلع الكنزة وارتدت أخرى ذات لون وردي، ثم وضعت لوناً ورديا على شفتيها، ومشطت شعرها بقوة. وإذا بها فجأة تبدو مغرية متألقة. لعلها غالت قليلاً. فأخرجت من الخزانة وشاحاً صوفياً وضعته على صدرها. هذا أحسن. لم تكن تريد أن تبدو جذابة.

ألقى كالوم عليها نظرة شاملة وهي تقترب منه، فشعرت بارتباك بالغ.

قالت وهي تحمل حقيبتها: «حسناً، أنا جاهزة متى شئت».

كان نهاراً صحواً مشرقاً، وعلى جانبي الطريق راحت أزهار النرجس تتمايل. فقالت باسمة: «أنا أحب هذا الوقت من العام، إنه يجعلني أفكر في أن الصيف وراء الباب. العالم أمامي يبدو ذهبياً مليئاً بالوعود».

ـ التشوّق الى الصيف أمر حسن.

ونظر إليها سائلاً: «ما هي خططك عندما تعودين الى لندن؟».

سحبت نفساً عميقاً وهي تتساءل عما إذا كان عليها أن تخبره عن المعرض الفني الذي ستقيمه. إنها تخاف ألا ينجح. وإذا انهارت كل

أحلامها، فستشعر بأنها حمقاء جداً. أصدقاؤها المقربون فقط هم الذين يعرفون عن معرض الخامس عشر من نيسان.

قالت له مترددة: «حسناً، سأعود للرسم».

فقال بجفاء: «لا يوجد مناظر كثيرة للرسم في لندن».

ـ هذا غير صحيح، ثمة أماكن جميلة للرسم في لندن وحولها.

فقال ضاحكاً: «حسناً، أظن أنّ هناك بعض المناظر لكنها أحسن هنا».

نظرت من النافذة الى الحقول الخضراء الفسيحة، فقالت: «أوافقك على هذا. هنا تكمن أحلام الفنان».

ـ نعم، لقد عاش هنا كثير من الفنانين والأدباء.

وعاد ينظر إليها: «عدا عن الرسم، هل هناك أمر آخر؟».

قال هذا بصوت حاول أن يجعله عفوياً.

ـ لا، في الواقع.

لماذا يشعر بأنها تخفي شيئاً عنه؟ رباه! تُرى هل خططت للهرب مع صديقها؟ وأبطأ السيارة. لماذا يرجو، وبكل هذه الحرارة، ألا تكون هناك خطط للزواج؟ هل لأن ذلك سيحطم قلب أبيها؟ وهل لأن فكرة أن يؤذيها شخص محتال تخيفه كثيراً؟ ما هو السبب؟ ربما كل هذا وربما لا علاقة له بهذا كله. لعل السبب فقط هو أنّه وجدها مرغوبة جداً، فهو لم يستطع أن ينسى ذاك العناق. وكان هذا يدفعه الى الجنون. انتهى الطريق فجأة عند البحيرة، فرأت عدداً من السيارات واقفاً في الصف بانتظار وصول العبّارة. أوقف كالوم السيارة وأطفأ المحرك، ثم قال باسماً: «ها نحن عند بحيرة «ويندرمير». المتجر يقع على الضفة الأخرى للبحيرة. ومدينة ويندرمير خلفه».

أخذت تنظر الى العبّارة وهي تتجه نحوهما ببطء. وتذكرت عندما كانوا يأتون الى هنا في طفولتها.

كان منظراً رائعاً. التلال المغطاة بالغابات خلف المياه الزرقاء الباردة والبخوت والقوارب تتهادى في أثر العبارة.

بعد أسبوع تقريباً، ستكون في طريقها الى لندن... التفت إليها، وتنحنح قائلاً: «أعلم أنني ذكرت هذا من قبل، لكنني لا أظنك ستبدلين رأيك وتبقين معنا مدة أطول؟».

نظرت إليه مفكرة: «إلى متى؟».

ـ لا أدري، عدة أشهر... وربما أكثر.

هزّت رأسها: «لا أستطيع يا كالوم...».

ـ لماذا؟ يمكنك أن ترسمي هنا، أليس كذلك؟ إذا كان السبب قلة أوقات الفراغ، فأنا مستعد لإفساح المجال والوقت لترسمي. لدينا غرفة فسيحة على السطح، مثالية للرسم.

قطبت جبينها: «هذا لطف بالغ منك حقاً».

تملكها إغراء كبير بأن توافق، فقد تأثرت كثيراً بعرضه هذا: «لا بد أنك تعتقد أنني صالحة جداً للولدين».

ـ نعم، فقد أعجبتني طريقتك في التعامل معهما.

الإخلاص البادي في صوته كان يزيد من صعوبة رفضها لعرضه هذا. لكنها جاءت إلى هنا بشكل مؤقت، فالعقود المؤقتة تمنحها القدرة على التركيز أكثر على عملها الفني. وتنفست بعمق: «لا... أنا حقاً لا أستطيع».

ـ فهمت.

رأت عضلة تتحرك في جانب فكه، وشعرت بأنه يريد أن يقول المزيد.

رست العبّارة فاستقام كالوم في مقعده وأدار المحرك بينما بدأت السيارات التي أمامهما تتحرك نحو المركب.

أرادت أن تقول له: اسمع لقد غيرت رأيي وسأبقى. كانت أفكارها ممزقة، فقد أحبت الطفلين حقاً وازدادت ولعاً بهما في هذه الفترة القصيرة من الزمن. وهي تعزّ كالوم حقاً... لا، بل ما تشعر به هو أكثر من مجرد معزّة.

خفق قلبها وهي تنظر إليه. وكان هو يفتش عن نقود معدنية ليدفع الأجرة.

ما كان لها أن تشعر بهذا الانجذاب العنيف نحوه. كل هذا خطأ. أخذت تفكر في حفلة تلك الليلة. كم كان متفهماً حين تحدثت عن أبيها، وكيف عانقها، ثم تذكرت رحلة العودة الى البيت وسالي.

لقد ذهبوا جميعاً الى البيت الريفي لشرب القهوة. وبعد ذلك عرض مارك أن يوصل سالي الى بيتها، لكن كالوم قال إن منزل سالي بعيد عن طريق مارك وأصر على أن يوصلها بنفسه.

وقتذاك ذهبت زاوي الى سريرها، لكنها بقيت مستيقظة تتقلب بقلق بانتظار سماع سيارة كالوم وهي تعود. وتملكها الغيظ حين لم تعلم متى عاد لأنها استغرقت في النوم. لكنها علمت أنه عاد متأخراً، وربما بقي في الخارج طوال الليل. وكانت طول الوقت تحدث نفسها بأن لا شأن لها بهذا، ومع ذلك أخذت صورة كالوم وسالي معاً تسخر منها منذ ذلك الحين.

أجفلها صوت كالوم وأعادها الى الحاضر: «آسفة، ماذا قلت؟».

ـ أتريدين أن تخرجي من السيارة؟

فأومأت ومدت يدها تفتح باب السيارة، شاعرة بالشكر. إنها لا تريد أن تفكر في كالوم وسالي أكثر.

كانت العبّارة قد انطلقت في طريقها الآن، شاقة أمواج البحيرة جاعلة شعر زاوي يتطاير حول وجهها.

استندا الى الدرابزين وأخذا ينظران الى المياه. قالت وهي تعبّ الهواء النقي: «ما أجمل المكان هنا!».

فسألها فجأة: «لماذا تعودين الى لندن إذن؟».

نظرت إليه: «لأنني مضطرة الى ذلك. لأن حياتي هناك».

سمحت لعينيها لحظة بأن تتأملا وجهه، لتحفظ عن ظهر قلب ملامحه هذه فتعود وتتذكره في ليالي لندن الموحشة. وفكرت مرة أخرى في جوابها، أتراها ستندم على قرارها هذا؟

حوّلت نظرها بعيداً بسرعة: «لكنني استمتعت بعملي هنا. خصوصاً هذا الصباح».

وابتسمت ضاحكة.

كانت العبّارة تستعد للوقوف في الناحية الأخرى.

فسألته وهو ينطلق بالسيارة: «ماذا ستشتري لأليس في عيد ميلادها؟».

ـ بيت دمية. لقد دفعت عربوناً له منذ أسابيع.

ـ سيفرحها هذا كثيراً.

ثم قطبت جبينها: «لماذا أخبرتني إذن أنك بحاجة إلى نصيحتي؟».

ابتسم: «حسناً، عندما عدت الى البيت تساءلت عما إذا كان اختياري صحيحاً... لديهم نوعان من البيوت، أحدهما عصري والآخر فيكتوري الطراز، فطلبت الفيكتوري. لكنني أردت مشورتك».

أمل أن يبدو مقنعاً لها. فالحقيقة أنه كان يريد رفقتها.

كان رصيف الميناء الخشبي الصغير هادئاً اليوم. بعض البط والأوز فقط كان يتسكع على ضفاف البحيرة الحجرية.

سألها: «هل هي كما تتذكرينها؟».

فابتسمت: «نعم، ما زالت على جمالها».

عندما رأت زاوي بيتي الدمية، وافقته في الحال على رأيه. فقالت وهي تنظر من خلال النوافذ والأبواب: «لقد اخترت البيت الأجمل حتماً. وأليس ستحبه كثيراً».

عندما دفع كالوم ثمن البيت، استرعى نظر زاوي دمية من القماش. كانت غير عادية بعينيها الزرقاوين الكبيرتين وابتسامتها الحزينة وكأنها تبكي لكي يشتروها، فأنزلتها على الفور عن الرف.

وكانت قد اشترت لأليس من قبل مرآة وفرشاة جميلتين، وهما أجمل ما وجدت في دكان القرية. لكن هذه الدمية مناسبة أكثر.

قطب كالوم جبينه عندما وضعتها على المنضدة: «لا تشتري شيئاً لأليس يا زاوي. ما لديها يكفي».

ـ لا تكن غبياً. الولد في السادسة لا يكتفي أبداً من الألعاب.

ابتسم: «لا بأس. ولكن مقابل هذا أريد منك أن تقبلي دعوتي على

الغداء».

ترددت لحظة ثم ابتسمت: «موافقة».

توقعت أن يأخذها الى أحد المقاهي العديدة المنتشرة حولهما، ولكن بدلاً من ذلك عادا الى السيارة واصطحبها الى فندق يشرف على البحيرة.

كان في الفندق مطعم جميل جداً، ولأن الوقت ما زال باكراً، لم يكن المطعم مزدحماً، فحصلا على مائدة تطل على مشهد رائع.

قال وهو يناولها قائمة الطعام: «إن لديهم طعام نباتي لذيذ».

نظرت إليه رافعة حاجبيها وقالت تمازحه: «عجيب أن تعلم هذا. ما كنت أظنك مهتم بأنواع الطعام النباتي».

ـ لقد ذكره لي شخص ما ذات مرة.

وفتح قائمة الطعام، مقطباً جبينه باهتمام. في الواقع، لقد سأل في الأنحاء مؤخراً لكي يعلم أي فندق يهتم أكثر بالأطعمة النباتية.

أعطى طلباتهما للنادلة، ثم سكب لها كالوم كوب ماء، فابتسمت له تقول: «هذه مفاجأة جميلة جداً لم أتوقع دعوة إلى الغداء اليوم. شكراً لك».

بادلها الابتسام. كانت جذابة للغاية. كان لديها أجمل قوام. يا له من محظوظ ذلك الرجل غير المناسب ماتيو! وتملكه الضيق وهو يفكر في ذلك.

صرف من ذهنه هذه الأفكار وقال: «هذا أقل ما عليّ فعله بعد تعبك في تنظيم حفلة عيد ميلاد أليس. لم أرَ قط حلويات بهذه الكثرة».

حاول بقوله هذا أن يبدو رجل أعمال جاداً، وكأنه بذلك يبعد تأثير جاذبيتها فيه.

هزّت رأسها: «أنا أستمتع بهذا العمل. وعلى كل حال كنت أقوم بعملي فقط، فأنت تدفع لي أجراً».

وحوّلت انتباهها الى النافذة، ملاحظة تألق الشمس على صفحة البحيرة. وتمنت لو أن كالوم أخذها الى الغداء لسبب آخر غير إظهار شكره.

نظرت الى شخص يتزلج على الماء، ورأى هو اتجاه نظراتها فسألها: «هل سبق أن جربت هذا؟».

- نعم. منذ زمن طويل، لست ماهرة جداً لكنني استمتعت به. وأنت؟.

- اعتادت هيلين أن تستمتع بالتزلج على الماء. كان لدينا قارباً سريعاً فكنا نبحر في الصيف وفي معظم العطلات الأسبوعية.

إنها المرة الأولى التي يعطيها فيها طوعاً معلومات عن زوجته. لم تدفعه أو تحثه على الكلام أكثر من ذلك، رغم فضولها البالغ.

لاحظت الشرود في عينيه وهو ينظر من النافذة.

نظر إليها: «يبدو هذا الآن بعيداً جداً. خلتني سأقضي بقية حياتي مع هيلين، لكننا تزوجنا لست سنوات فقط».

- لكنك عشت ست سنوات من السعادة وهذا أكثر مما يحلم به البعض

ابتسم: «هذا صحيح. كما أن الزمن شفى الكثير من الآلام. في المناسبات فقط مثل أعياد ميلاد الولدين وعيد الميلاد تطفو الذكريات من جديد. كانت تحب الولدين كثيراً جداً».

شعرت زاوي بغصة تخنقها. فمدت يدها الى المائدة ووضعتها على يده. لم تقل شيئاً، فما من كلمات تشفي الألم.

نظرا في عيني بعضهما البعض لحظة، وأمسك بيدها يعتصرها برفق.

عادت النادلة بالطعام فانتفضا منفصلين.

نظرت زاوي الى قائمة الطعام، شاعرة بالذنب لأن أفكارها عندما أمسك بيدها، انتقلت في لحظات، من العطف الى الرغبة.

- آسف يا زاوي، فأنا لا أتحدث عادة بهذا الشكل.

نظرت إليه: «حسناً، أنت تعرف جوابي على هذا. على كل حال، فقد أتعبت أذنيك تلك الليلة بمشاكلي. والآن دورك».

لوى شفتيه ساخراً: «هل قررت ما ستفعلينه بالنسبة الى أبيك؟».

رباه! أوشك أن يقول فرانسيس. فقد كان الاسم على طرف لسانه.

هزت رأسها: «لا، ولكن دعنا لا نتحدث عن ذلك».

ربما هي فكرة صائبة. فكر كالوم في هذا وهو يحاول استعادة هدوئه.

سألته فجأة: «هل يمكنني أن أسألك سؤالاً شخصياً؟».

- نعم.

- ما الذي حدث لزوجتك؟

وعندما لم يجب على الفور، رمقته بنظرة سريعة متفحصة لترى رد فعله على سؤالها. ولكن كان من الصعب أن تكتشف حقيقة شعوره، فقالت بسرعة: «آسفة، ربما ما كان لي أن أسألك؟».

- لا بأس، فهو ليس سراً طبعاً. لقد ماتت هيلين في حادث سيارة. كان ذلك في شهر كانون الثاني، وفي ذلك الشهر تكون الطرق هنا خطرة للغاية. لقد انحرفت بها السيارة ثم انقلبت رأساً على عقب. خبير الحوادث قال إنها لم تكن مسرعة، لكن الموت عاجلها.

وقطب جبينه وأصبح صوته أجش لدى تلفظه بالكلمات الأخيرة.

فقالت برقة وقد تملكها الندم: «ما كان لي أن أسألك. لقد حدثت نفسي بأن عليّ ألا أفعل».

نظر إليها باسماً وقال بصوت مرح تقريباً: «دعينا نرى... أنت مندفعة، صريحة، وربما عنيدة قليلاً عندما تشائين».

ونظر إليها بعينين ضيقتين وكأنه يقوّمها جاداً: «وأراهن على أن برجك هو الثور».

ابتسمت شاعرة بالراحة لأنهما عادا الى المرح: «أتحاول أن تقول إني ثور في دكان خزف صيني؟».

نظر إليها بدهشة: «هل أنا على صواب؟».

ضحكت: «لا».

ضحك: «لو كنت على صواب لكانت معجزة. فأنا لا أعرف شيئاً عن الأبراج».

جاءت النادلة لتأخذ الأطباق الخالية وتحضر لهما الطبق الرئيسي. أصبحا وحدهما مرة أخرى، وقال: «والآن أخبريني بما أنك خبيرة مواليد برج الأسد، هل لديهم أي مزايا جيدة؟ أم تجدينهم مزعجين؟».

ـ لديهم بعض المزايا الجيدة جداً. إنهم وسيمو الشكل دوماً. وهم أيضاً يراعون مشاعر الآخرين، وأوفياء ويحبون الهزل، معشرهم سهل، مشاعرهم صادقة.

ـ أحقاً؟ كيف عرفت كل هذا؟

ابتسم هازلاً، فأجابت: «لأن برجي هو الأسد. ما رأيك؟».

وقابلت عينيه بنظرة ماكرة ساخرة متحدية. فانفجر ضاحكاً ووجدت نفسها تضحك معه.

ـ كدت أشعر بالغرور. إن لديك ثقة الأسد نفسه.

ـ شكراً.

وعادا يضحكان مرة أخرى.

وسألها: «إذاً، ما هي الأشياء التي تحرّك مشاعرك؟».

هزّت كتفيها: «كل الأشياء، الحيوانات، رسومي، الظلم مهما كان والناس الذين أحبهم».

سألها بهدوء: «وهل ماتيو واحد منهم؟».

ترددت: «نعم، ماتيو شخص غير عادي بالنسبة إليّ».

قاطعها شاعراً بالذنب: «زاوي، هناك أمر نسيت أن أخبرك به. لقد ترك لك ماتيو رسالة على المجيب الآلي ليلة حفلة كايل الموسيقية. لقد استمعت إليها عند دخولي، ثم... حسناً كنت مستعجلاً للغاية ولم أتذكر أن أخبرك».

هزت كتفيها: «لو كانت الرسالة هامة لاتصل مرة ثانية. حاولت في الحقيقة أن أتصل به أمس. لكن المجيب الآلي هو الذي ردّ».

ـ قال شيئاً عن الخامس عشر من نيسان. قال ما معناه إن كل الأمور على ما يرام وألا تقلقي.

ـ هذا حسن.

ـ إذن، ما الذي سيحدث في الخامس عشر؟ أم لا ينبغي أن أسأل؟

تنفست بعمق: «إنه معرضي الفني الأول في إحدى صالات ماتيو».

قالت هذا وعيناها تتألقان حماسة.

فقال يتأكد مما سمع: «معرض فني؟».

أومأت: «إنه الأول، وأنا متوترة قليلاً، حسناً الحقيقة أنني متوترة جداً. لكنني اجتهدت في العمل. وماتيو يقول إنه ما كان ليزكيني لولا تأكده من قدرتي على النجاح».

هزّ رأسه: «معرض فني؟ هذا رائع يا زاوي».

لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بالحماسة، فقد أحس براحة كبيرة لأن الخامس عشر لم يكن موعد زواج.

ضحكت: «أرجو أن يكون رائعاً. لكنني لا أعلم ما إذا كنت لأصل الى هذا الحد لولا تشجيع ماتيو».

ـ يبدو أنه رجل محترم.

ـ من أفضل الرجال. فقد ساعدني على السيطرة على أعصابي، ولم يتوقف قط عن الإيمان بي.

هل تحبه؟ يبدو أنها متحمسة كثيراً له ومعجبة به. أراد أن يسألها، لكن السؤال كان شخصياً للغاية. وبدلاً من ذلك قال بدون اكتراث: «ظننت حين سمعت رسالته الهاتفية أن الخامس عشر هو موعد الزفاف».

رفعت حاجبيها: «رباه لا».

ـ هل يعلم أبوك بأمر المعرض؟

ـ لا...

قاطعتهما النادلة التي رفعت الأطباق وسألتهما إن كانا يريدان قهوة أم حلوى.

نظرت زاوي الى ساعتها: «لا أظن أن لدينا وقت أليس كذلك يا كالوم؟ لا أريد أن تتأخر عن إحضار الولدين».

ـ لا، معك حق. الأفضل أن نذهب.

طلب الحساب من النادلة شاعراً بالأسف، فقد تمنى البقاء مدة أطول ليزداد معرفة بها. ولكنه قد يتمكن من ذلك فيما بعد.

٩ ـ تحت المطر . . .

كان هناك الكثير من العمل عصر ذلك اليوم، ما بين إحضار الولدين من المدرسة وحفلة عيد ميلاد أليس. وشعرت زاوي بالامتنان لكالوم عندما أوضح لها أنه عطّل نفسه عن العمل في ذلك اليوم. فقد ساعدها في استقبال الأطفال الستة عشر الذين اندفعوا بعنف في أنحاء المنزل. وعدا عن ذلك، ثمة شيء مريح جداً في العمل بجانبه، فهو سهل المعشر وبالغ المرح، ومجرد وجودها بقربه يمنحها بهجة غامضة لكنها رائعة.

ضحكا معاً وهما يفجران البالونات، ولعبا مع الأطفال. ثم عندما أخذ الأطفال يرقصون ويغنون، عادا الى المطبخ لكي يبدآ بتقديم الطعام.

قال كالوم ضاحكاً وهو يشرب: «أشعر فجأة بالكبر، لقد تعبت. كاد يقتلني كل ذلك القفز».

فضحكت وقالت مداعبة: «لكنك راقص ماهر. صحيح أنك لم تعد فتياً، لكنك لست في حالة سيئة تماماً».

ـ هذا مضحك، لكنني سأريك أنني ما زلت في عزّ شبابي.

ـ أحقاً؟

قذفها بماء بارد من الصنبور فصرخت. وبين الضحك واللعب، انفتح الباب الخلفي ودخلت سالي التي أخذت تنقل نظراتها بينهما.

ـ آسفة. لقد قرعت الباب الأمامي فلم يسمعني أحد.

فقال كالوم ببساطة: «لا عجب مع الجلبة التي يحدثها الأولاد. هيا أساعدك على خلع معطفك».

وأشار برأسه إلى الموسيقى العالية في الغرفة الأخرى. كانت سالي ترتدي معطفاً رائعاً من الكشمير وتحته ثوب من المخمل زيتي اللون بدت فيه مذهلة. وهذا ما جعل زاوي تشعر فجأة بأن ملابسها مزرية. ولكنها ليست هنا بصفتها ضيفة، بل هي تزاول عملها، كما أخذت تحدّث نفسها بحدة.

أخذت تذكّر نفسها بأنه من الجنون أن تستاء من مظهر سالي، فهي مدعوّة، وربما هي امرأة بالغة اللطف والكياسة. ثم سارت لتساعد ابنتيّ سالي في خلع معطفيهما.

كانت كلارا ترتدي ثوباً طويلاً من المخمل جعلها تبدو كفتاة جوقة مرتلين في الكنيسة. أما ناتالي أختها الصغرى فطفلة حلوة ذات ابتسامة واسعة متألقة، لا تشبه أختها أبداً.

قالت زاوي لهما باسمة: «أليس في قاعة الجلوس إذا أحببتما الذهاب إليها».

ركضت ناتالي الى القاعة، لكن كلارا بقيت مع الكبار.

سأل كالوم: «أتريدين عصيراً؟».

ـ نعم، شكراً.

ونظرت المرأة الى الطعام على المائدة: «يبدو هذا شهياً».

ـ نعم، زاوي صنعت الأعاجيب.

نظرت سالي الى زاوي. كان في المطبخ جوّ مريح. وقالت لها: «أنت تتحولين الى شيء نافع حقاً يا زاوي، أليس كذلك؟».

قالت هذه الكلمات ببشاشة، لكن زاوي كانت واثقة من أن الحقد يكمن وراءها.

أجابت هازة كتفيها: «أبذل جهدي».

هل استحال الجو السعيد الذي غمر المكان منذ لحظات إلى جو جاد، أم أن مخيلتها صوّرت لها ذلك؟

نظرت الى كالوم. كانت عيناه على سالي. ولم يكن هذا عجيباً. لقد قلقت هي بسبب اتساع «قبة» بلوزتها، ولكن ذلك لا يقاس بما كانت سالي

تكشف عنه. وفكرت زاوي عابسة بأن هذا لا يناسب حفلة للأطفال، ثم تساءلت فجأة عما إذا كانت تغار من علاقة هذه المرأة بكالوم. وجدت هذه الفكرة مزعجة كثيراً إذ لا يحق لها أن تغار. ولكن إن لم تكن هذه غيرة، فلماذا تشعر إذن بهذه الكراهية غير المنطقية تجاه هذه المرأة؟

حوّلت انتباهها الى كلارا، محاولة جهدها أن تصرف ذهنها عن هذه الأفكار المزعجة: «أتريدين كأس عصير يا كلارا؟».

ـ لا، شكراً.

قطبت زاوي وقالت: «لماذا لا تأتين الى الغرفة الثانية معي؟ سنعزف الموسيقى ونلعب «بامبس» بعد لحظات».

نظرت إليها الفتاة بجمود، فقالت زاوي تحثها: «أنت تعرفين اللعبة. عندما تسكت الموسيقى عليك أن تجلسي».

قاطعتها الفتاة بحدة: «أعرف موسيقى لعبة البامبس يا غبية. لكنني كبيرة على هذه الموسيقى».

أمسكت زاوي يدها: «اعزفيها، أرجوك يا كلارا. إنه عيد ميلاد أليس وهي تحب كثيراً هذه اللعبة. هيا بنا ستمتعين نفسك».

سمحت كلارا كارهة بأن تقودها زاوي الى الغرفة الثانية. بينما حدثت زاوي نفسها، وهي تجلس مع الأطفال أنها تفعل الصواب، فقد منحت سالي وكالوم شيئاً من الوقت ينفردان فيه. ومع هذا أخذت من حين إلى آخر تنظر نحو الباب، راجية ألا يبقيا طويلاً وحدهما.

وعلى عكس ما توقعت، بدا أن كلارا استمتعت كثيراً بوقتها. فيما عادت زاوي الى المطبخ لكي تحضر مزيداً من الطعام، ودهشت عندما وجدت سالي وحدها.

قالت لها سالي: «ذهب كالوم ليطمئن الى إحدى الأفراس».

ـ لا بد أن الفرس هي «نيل» فهي ستلد في أي يوم.

سألتها سالي فجأة: «متى قلت إنك سترحلين يا زاوي؟».

لماذا تلقي عليها دوماً هذا السؤال؟ تساءلت زاوي بغيظ: «لا أدري.

عليّ أن أرى الحالة».

تعمّدت هذا الجواب الغامض. لا شأن لسالي بهذا الأمر.

ـ أتراك تفكرين في قبول عرض كالوم بأن تطيلي بقاءك هنا؟

التفتت زاوي إليها بدهشة: «هل أخبرك هو بذلك؟».

ابتسمت سالي: «نعم، طبعاً. إننا على علاقة وثيقة».

ـ هكذا إذن.

وشغلت زاوي نفسها بوضع الطعام على الصواني. لم تعرف لماذا دهشت لأن كالوم أخبر سالي بما عرضه عليها. وشعرت بأنها حمقاء.

تابعت سالي قولها برقة: «لقد أصبحنا متفاهمين منذ فترة. ولا بدّ من أن تزداد علاقتنا عمقاً».

أتراها تتحدث عما حدث بينهما عندما أوصلها كالوم الى بيتها في تلك الليلة؟ لم تشأ زاوي أن تسمع شيئاً عن ذلك، ومع هذا رأت نفسها مرغمة على الاستماع.

ضحكت سالي بمرح: «نعم، إذا استمرت الأمور كما هي الآن، وبقيت أنت فترة أطول، فربما ينتهي بك الأمر الى أن تشتغلي عندي أيضاً».

نظرت زاوي إليها وجهدت لئلا يبدو عليها ما تشعر به من ذعر. بينما تابعت سالي: «أنا أخبرك بهذا وهو لا يزال سراً وأنت تفهمين السبب. فكالوم غير مستعد للإعلان عن علاقتنا أمام الناس بعد. فهو يريد أن يتمهل من أجل ولديه، كي يتعوّدا عليّ تدريجياً. ولكن هناك احتمال كبير في أن تتطوّر علاقتنا، وعندما يصبح لدينا أربعة أولاد، فسنكون بحاجة الى معونتك».

ـ نعم، أنا واثقة من أنكما ستحتاجان الى ذلك.

ألهذا طلب منها كالوم البقاء؟

كانت هذه الفكرة مفزعة: «لكنني أظن أنني راجعة الى لندن قريباً جداً، على كل حال».

أرادت أن تخرج من الغرفة لتبتعد عن هذا الحديث، لكن سالي قالت:

«هذا مؤسف».

نظرة السرور والاعتداد بالنفس عبرّت عن كل شيء إلا عن الأسف.

عادت زاوي إلى غرفة الجلوس، فرأت كلارا تمدّ قدمها أمام كايل لتجعله يتعثر. وكان الصبي يركض فسقط على السجادة.

مضت لحظة بقي فيها مقطوع الأنفاس ثم بدأ بالبكاء... وضعت زاوي الصينية من يديها وأسرعت إليه تحمله: «هل أنت بخير؟».

أخذ يحاول خنق شهقاته. وصاحت أليس باكية: «كلارا أوقعته».

وضعت كلارا يدها على وركها: «لا، لم أفعل. هو الذي كان يركض كالطفل فوقع».

فكرت زاوي في أن من الأفضل أن تتجاهل هذا. ثم ركزت اهتمامها على كايل: «هل تأذيت؟ هل اصطدم رأسك؟».

ـ لا، ركبتاي تؤلماني.

أخذت زاوي تفركهما له ثم سألته: «هل خفّ الألم الآن؟».

فأومأ برأسه.

جاءت سالي الى الغرفة ووجهها صورة للقلق.

وسألت: «ما الذي يجري؟».

قالت كلارا: «قالوا إنني أوقعت كايل، لكنني لم أفعل. كان يركض في الغرفة كطفل أحمق فوقع».

هزت سالي رأسها وقالت لكايل: «حقاً ياكايل! أنت الآن أكبر من أن تكون بهذه الحماقة. عليك أن تعتذر لكلارا».

قال كايل وقد احمر وجهه: «ليس عليّ ذلك».

ارتفع حاجبا سالي: «لا أدري ماذا سيقول أبوك عندما يعلم أي ولد شيطان أصبحت».

توتر وجه كايل فأسرعت زاوي تربت على كتفيه تطمئنه:

ـ لا أظن أنّ الأمر يصل الى هذا الحد، فلم يحصل ضرر. هيا بنا نشرب عصيراً ونقطع الكعكة.

تمتمت كلارا: «لا أريد شيئاً منها. إنها فظيعة، كعكة عيد ميلادي الشهر الماضي كانت أفضل بكثير».

قال كايل بغضب: «لا، لم تكن أحسن. زاوي خبزت هذه الكعكة وهي عظيمة».

فسألته كلارا بلهجة متسلطة: «كيف تعرف أنها كذلك وأنت لم تذقها بعد؟».

تدخلت زاوي بسرعة: «اسمعوا، لقد تحمستم جميعاً أكثر مما ينبغي».

قالت زاوي ذلك ورأسها ينبض... نظرت خفية الى ساعتها. بقي نصف ساعة على الأكثر. وبدت لها هذه المدة وكأنها الأبدية: «هيا بنا الى المطبخ لنشرب عصيراً. أعيدي الموسيقى يا أليس».

تمتمت سالي بصوت خافت: «تصرف كايل غير مقبول. ذلك الطفل بحاجة إلى أم تضع له حداً».

فقالت زاوي برقة: «رأيت بنفسي كلارا تمدّ قدمها لتجعله يتعثر».

التوى وجه سالي غضباً وقالت ببرودة: «لا أظن ذلك».

لم ترد زاوي عليها إذ جاء أحد الأولاد راكضاً: «الحمام يفيض والماء غمر الأرض كلها».

دخل كالوم الغرفة في هذا الوقت فتمتم وهو يرى وقفة سالي الغاضبة: «ماالذي يجري هنا؟ ماذا حدث في الحمام؟».

تمتمت زاوي تقول: «لا أدري. أرجو ألا يكون شيئاً فعلته أنا بجهاز التدفئة».

ترك كالوم المطبخ ليرى ما حدث وهو يهز رأسه متمتماً: «أما قلت لك أن تتركي ذلك الجهاز لي أنا».

رأت زاوي ابتسامة الرضا على وجه سالي وهي تتبعه الى الخارج.

نظر كايل الى زاوي، ثم تقدم منها ومنحها عناقاً سريعاً. لم يقل شيئاً، ولكن بشكل ما، تأثرت زاوي بهذه اللفتة.

أمسكت سالي بذراع كالوم قرب السلم تعيقه عن السير قائلة: «كلمة

www.elromancia.com

واحدة فقط، يا كالوم».

ـ ما هي؟

ـ أعلم أن الوقت غير مناسب لما سأقول، لكنني فكرت في أن عليك أن تعلم...

ـ ماذا؟

ـ حسناً، لا أدري كيف أقول هذا، لكن زاوي كانت حادة جداً مع الولدين. لم تكن صبورة أبداً معهما.

قطب جبينه: «هذه ليست عادة زاوي».

هزت كتفيها: «أنا أخبرك فقط بما سمعته، كما كانت فظة جداً معي ومع كلارا».

قال عابساً: «ربما هذا ليس أحسن الأوقات لتتحدثي عن هذا».

قالت وهي ترتجف: «أتريد أن تقول إنك لا تصدقني؟».

انتقلت عينا كالوم من سالي الى أليس التي جاءت نحوهما راكضة ووقفت تستمع الى كل كلمة.

قال لسالي: «ستتحدث عن ذلك فيما بعد».

فأومأت برأسها.

في المطبخ كانت زاوي تضع الشموع في كعكة عيد ميلاد أليس. ودهشت عندما عادت سالي إلى المطبخ مع ابنتيها وأخذت معاطفهن من خلف الباب.

ـ هل أنت راحلة يا سالي...؟

ـ بكل تأكيد.

ودون نظرة الى الخلف خرجن وصفقن الباب خلفهن.

تمتمت زاوي تقول لكايل بابتسامة عريضة: «حسناً، لم يكن وجودهن مفيداً جداً، أليس كذلك؟».

وعندما عاد الباب الخلفي وانفتح، ظنت زاوي للحظة مفزعة، أنهن عدن. لكن الراحة غمرتها حين رأت والدة كالوم ومعها مارك.

ـ أين صاحبة العيد؟

نادت الجدة فجاءت أليس تركض من الغرفة الأخرى وألقت بنفسها بين ذراعيها تعانقها بقوة.

قالت الجدة: «عيد ميلاد سعيد يا حبيبتي. هل أنت مسرورة؟».

قالت أليس بحماسة: «الحفلة عظيمة جداً. أحسن حفلة على الإطلاق. أصبح عندي بيت لعبة. زاوي أغرقت البيت بالماء وسالي قالت إن زاوي كانت فظة معها».

ـ أحقاً؟

ونظرت الجدة ومارك الى زاوي فشعرت بعدم الراحة.

وضحكت الجدة لزاوي: «حسناً، يبدو أن الأمر خطير؟».

قالت زاوي محاولة أن تبدو بشوشة: «في ذلك بعض المبالغة يا ألين».

قال كالوم من العتبة: «كثير من المبالغة في الواقع. زاوي لم تغرق البيت بالماء. هناك من وضع السدادة في حوض الحمام، وترك المياه تتدفق من الصنبور. الحمام مبتل قليلاً لكنه سيجف بسرعة».

رغم أن زاوي شعرت بالراحة لأن اللوم لا يقع عليها لفيضان الماء في الحمام، إلا أن راحتها هذه كانت مشوبة بالكدر لأنه لم يعارض الجزء الثاني من كلام أليس.

كان بإمكانه على الأقل أن ينصرها ويسمع روايتها. لكنه وقف إلى جانب صديقته، كما فكرت بكآبة.

تعالى قصف الرعد. وكانت زاوي قد وضعت آخر الأطباق في الغسالة، ثم أخذت تنظر من النافذة.

أضاء لمعان البرق الليل فجأة، ثم أخذت العاصفة تزمجر فوق الجبال.

كان كالوم في الإصطبل مع مارك. وكانت الفرس «نيل» قد ولدت مهرها بعد ساعة من قضية طوفان المنزل بالماء مباشرة. والجدة ألين في الطابق الأعلى تقرأ حكاية قبل النوم للولدين اللذين لم يظهر عليهما أثر للتعاس رغم أحداث النهار المثيرة.

سكبت زاوي كوبين من الشاي وحملتهما الى الرجلين. كانت الليلة دافئة بشكل مدهش.

أضاء مصباح الإصطبل بنوره الخافت. وفي الضوء المهتز، رأت زاوي المهر الوليد واقفاً على قوائمه...

قال كالوم ضاحكاً: «في الوقت المناسب لكي ترحبي بالقادم الجديد. الأم والمهر بأحسن حال».

ـ هذا رائع.

وناولتهما فنجاني الشاي، ثم تقدمت لكي تتمكن من الرؤية جيداً.

قال مارك بعدماأنهى فنجانه بجرعة واحدة: «سأذهب الآن يا كالوم».

سأله كالوم: «هل ستذهب أمي معك؟».

ـ لا، لقد جاءت بسيارتها.

قالت زاوي: «حملت لها كوب شاي منذ فترة. إنها تقرأ قصة للولدين».

ضحك مارك: «في هذه الحالة، ستبقى هنا الليلة».

سار كالوم معه الى الباب قائلاً: «شكراً لمعونتك يا مارك. آسف لأنك لم تستطع أن تعزف موسيقى «البامبس» في الحفلة».

ضحك ثم لوّح بيده لزاوي وغادر المكان. أخذت زاوي تمرّ بيدها على جلد المهر المخملي: «إنها جميلة يا كالوم. ماذا ستسميها؟».

فضحك: «لا أدري، «بداية الطوفان»؟ «إقتراب العاصفة» ماذا تقترحين؟».

هزّت كتفيها: «هذا شأنك».

ـ كارثة زاوي؟

عبست: «تذكرّ أن الطوفان لم يكن ذنبي».

ـ نعم، لكنك ظننت ذلك.

ـ لا، أنت الذي ظننت ذلك.

فضحك.

ـ نعم، أنت تضحك الآن، لكنك قبل ذلك كنت تحملق بي وكأني اقترفت ذنباً فظيعاً.

ـ لا، لم أفعل ذلك.

وجلس على كيس من التبن يرشف الشاي وعيناه تتنقلان على قوامها الرشيق. نظراته جعلت قلبها يخفق بسرعة.

قال: «كنت مضطرباً. هناك فرس في المخاض، والحمام يفيض، وسالي تشكو بعنف من أمور تافهة كالمجنونة. لا عجب إن كنت متوتراً قليلاً».

ذكره اسم سالي جعلها متوترة هي الأخرى.

وضحك لها مرة أخرى: «على كل حال، الأهم هو النهاية السعيدة».

ـ هل هذا ما تسمي ذلك؟

قطب جبينه: «الفرس سعيدة، الحمام سيجف، وسأضع حداً لسالي. سأذهب وأراها غداً وأسوّي المسألة. الولدان كانا سعيدين. المهرة جميلة. ماذا نريد أحسن من ذلك؟».

حدّقت فيه: «عندما ستذهب لترى سالي، هل ستعتذر لها عني؟».

ـ لا، طبعاً لا.

ـ لم أكن فظة معها يا كالوم. كنت أدافع عن كايل.

قالت هذا بحرارة، فقال برقة: «نعم، أخبرني أنك كنت لطيفة معه».

أجفلت: «متى فعل ذلك؟».

أومأ: «عندما جاء الى هنا ليرى المهر».

وهمدت نيران الغيظ بشكل ما.

ـ لا تقلقي بشأن سالي... إن طبعها سيء. ولكنها لا تعني ذلك حقاً. إنها سريعة التوتر فقط وسأهدئها غداً.

تساءلت كيف سيفعل ذلك. تصورته يأخذ تلك المرأة بين ذراعيه معانقاً... وشعرت بالتعاسة لهذه الصورة. دست يدها في شعرها لأنها لا تريد أن تفكر في هذا... وقال لها وهو يسحب كيس تبن آخر الى جانبه: «تعالي واجلسي. تبدين متعبة».

ـ متعبة قليلاً. فأنا لم آكل منذ وقت الغداء.

قال وهو يضع فنجانه الفارغ على الأرض: «يبدو لي ذلك الغداء وكأنه حدث منذ زمن بعيد».

فكرت في ذلك الوقت الذي أمضياه معاً: «نعم... لكنني استمتعت به كثيراً».

قال بهدوء: «وأنا كذلك. ربما يمكننا أن نذهب مرة أخرى قريباً».

ـ على ذلك أن يكون قريباً لأنني ذاهبة الى لندن الأسبوع القادم.

ـ سيحزن الولدان.

أرادت أن تسأله إن كان سيفتقدها هو أيضاً، لكن ذلك خارج حدودها. وعلى كل حال لن يفتقدها طبعاً، فما هي سوى مستخدمة عنده، سرعان ما يستبدلها بأخرى. وشعرت بالكآبة لهذه الفكرة.

وتنهدت: «يجب أن أعترف بأنني سأفتقدهما».

تذكرت كيف ضحكوا معاً في الحفلة، ومنظر وجه أليس وهي تفتح علب الهدايا، وكيف عانقها كايل في المطبخ.

وللحظة قصيرة، شعرت زاوي بأنها تنتمي الى هذا المكان حقاً. كان هذا شعوراً جنونياً وهي التي لم تمكث هنا سوى وقت قصير جداً، خصوصاً عندما تذكرت سالي وعلاقتها بكالوم.

قال برقة: «لا تذهبي إذن».

تقابلت نظراتهما، فترددت لحظة، ثم تذكرت ما قالته سالي عن جعلها في خدمتها هي أيضاً. وكانت هذه الفكرة مفزعة: «لقد أخبرتك يا كالوم بأنني لا أستطيع، فهذه وظيفة مؤقتة. كما أن لدي معرض أريد أن أرعاه».

وتقدمت منه تجلس بجانبه. كانت «نيل» تلعق مهرتها، وتدفعها برفق. وكان هذا مشهد عطف وحنان في ضوء المصباح الخافت.

قالت بهدوء: «كان عليّ أن أحضر دفتر التخطيط الى هنا... هذا المشهد رائع».

ـ حسناً، غداً يوم عطلتك. يمكنك أن تأتي إلى هنا وتحاولي الرسم.

سيكون عليك أن تريني بعض أعمالك.

ـ سأدعوك الى معرضي. هل ستكون الرحلة طويلة بالنسبة اليك؟.

ـ أين سيقام؟

ـ ستوديو ماتيو على ضفة النهر. إسمه «فن ديفاين» لأن هذا هو اسمه، كما تعلم ماتيو ديفاين.

قال متهكماً: «هذا اسم ونصف. هل هو اسمه الحقيقي؟».

ـ نعم، إنه كذلك.

ـ أتظنين أن بإمكانك أن تثقي به؟.

سألها هذا فجأة، متذكراً ما قاله فرانسيس من أنه محتال نصاب.

ـ ماذا تعني؟

تجاهل سؤالها: «هل أخذ منك نقوداً للمعرض؟».

قالت بحذر: «أنت تتحدث كأبي الآن».

ـ أظنك قلت إن أباك لا يعلم بأمر المعرض؟

ـ وهو لا يعلم فعلاً. ولكنه لو علم، لطرح عليّ هذا النوع من الأسئلة، وهو إلى ذلك غير مؤمن بموهبتي أيضاً.

قال بسرعة: «لم أقل إنني غير مؤمن بموهبتك، قلت فقط...».

ـ أعلم ما قلته. فقد سمعتك.

وبدأت بالنهوض واقفة لكنه مد يده وجذبها الى أسفل بجانبه.

ـ آسف، لم أشأ أن يبدو كلامي بهذا المعنى. ولكنني فهمت مما أخبرتني به أن أباك رجل ثريّ، إذن كيف يمكنك أن تتأكدي من أن ديفاين هذا لا يعلم بذلك؟

ـ لأنني أعرف ماتيو. وعلى كل حال هو نفسه رجل ثري، ولا يحتاج الى أموالي.

ـ وما أدراك؟

ضاقت عيناها وهي تنظر إليه: «أنت كثير الشك. هل أنت بهذه السخرية دائماً؟».

ـ لست ساخراً.

وفكر بسخرية في أنه قد يكون كثير الشك لكنه ليس ساخراً. وإذا كان كثير الشك فالسبب هو ما أخبره به فرانسيس عن ديفاين هذا وعن غشّه.

جال بنظراته على وجهها برقة، ثم قال بلطف: «أنا لا أريد لك الأذى ليس إلا».

ـ وأنا لا أريد لك الأذى، لكنني لا أقول لك إن سالي تهتم بك وليس بولديك، وإنها على الأرجح، ستكون زوجة أب حقيرة. ما كنت لأتصور نفسي بمثل انعدام حساسيتها تلك.

حامت عيناه على وجهها بما يشبه من التسلية: «لا تتصورين؟».

ـ لا.

وحملقت فيه وعيناها الخضراوان تشعّان ناراً.

ـ من هي المرأة التي ستكون برأيك زوجة أب جيدة لولديّ إذن؟

سألها هذا بهدوء وقد استقرت عيناه على شفتيها.

ـ لا أدري.

كان طبعها الآن قد هدأ بنفس السرعة التي ثار بها. وازدادت حرارتها فجأة بطريقة مختلفة تماماً عندما انتبهت الى مدى قربه منها: «أنا... أعرف فقط أنها لا تبدو عطوفاً على كايل. وهو بحاجة الى من يفهمه...».

وحاولت جاهدة أن تركز أفكارها على ما كانت تقوله لكنها وجدت ذلك مستحيلاً.

مدّ يده يلمس وجهها: «شكراً».

وكان قلبها يخفق بعنف. فازداد ميلاً عليها: «لاهتمامك».

أتراه سيعانقها؟ وتلهفت الى ذلك.

ـ وأنت على صواب. سالي غير مناسبة لتكون أماً لطفليّ. لكنني أؤكد لك بأنني لم أفكر قط في أن أجعلها تلعب هذا الدور.

ازداد تسارع خفقات قلبها الآن: «لا؟ لقد أعطت هي انطباعاً بأنك تفكر في ذلك».

ـ حسناً، لا أدري من أين جاءت بهذه الفكرة. لا بد أنك أسأت الفهم.

وكان صوته مبحوحاً وخافتاً: «عندما أفكر في علاقة طويلة، فسأختار واحدة مختلفة كلياً عن سالي».

كان قريباً جداً منها حين أضاف: «ستكون عديمة النفع كزوجة مزارع. أليس كذلك؟ هل يمكنك أن تتصوري سالي راكبة جواداً لكي تصلح السياج؟ وهل تتصورينها ترضع الحملان؟ أو تنظم بيتي بشكل عام؟».

حدقت إليه لحظة، ثم أدركت أنه كان يداعبها فقط.

فمالت تبتعد عنه، محاولة عدم الشعور بخيبة الأمل: «لكنني كنت أفكر في ما يحتاجه الولدان لا بما تحتاجه أنت».

ـ حسناً، إذا كنا سندخل في موضوع احتياجاتي...

ومال نحوها مرة أخرى، فمالت الى الخلف، وإذا بهما فجأة يفقدان توازنهما ويستلقيان مجفلين في التبن الناعم خلفهما.

أخذت زاوي تضحك مقطوعة الأنفاس إذ وجدت نفسها ممددة بطولها في القش، وهي تحدق الى أعلى في عيني كالوم: «كيف حدث هذا؟».

ضحك لها: «ليس لدي فكرة. ولكن بالنسبة إلى السقطة ذاتها، فهي رائعة».

وانتبهت فجأة إلى أنه أخذ يضمها إليه. لم يحاول أن يبتعد. كانت عيناه تحومان على وجهها وعلى ملامحها الجميلة، وتألق عينيها الخضراوين الواسعتين، وشعرها الأشقر المنتشر حول وجهها بفوضى بالغة...

وتمتم مداعباً: «والآن، ما الموضوع الذي كنا نتحدث عنه؟. هل يتعلق باحتياجاتي؟».

وقبل أن تجيبه ضمها إليه معانقاً. كان عناقاً حاراً دفع خفقات قلبها عالياً. حاولت لحظة أن تسيطر على نفسها وألا تستجيب. ثم، وقبل أن تدرك ما تفعل أخذت تبادله عناقه، وازدادت خفقات قلبها أكثر فأكثر

عندما طوّقها بذراعيه.

في الخارج كان الرعد يقصف مرة أخرى، وكأنه يتجاوب مع مشاعر زاوي العاصفة. وازدادت هي اقتراباً منه وكأنها تريد أن تطفئ هذا الظمأ الذي ألمّ بها.

تمتم وهو يبتعد عنها: «ما كان أجمل هذا».

إبتلعت ريقها بصعوبة، محاولة أن تفكر بعقلانية، ولكن لا شيء عقلانياً خطر لها.

ـ أنا أريدك يا زاوي، أنا أريدك بشكل يكاد يقتلني... وهذا الشعور موجود منذ اللحظة التي رأيتك فيها.

تساءلت إن كان يشعر بدقات قلبها على صدره. وقالت له بهدوء: «كن جاداً، يا كالوم. هذا جنون».

فقال وهو ينظر في أعماق عينيها: «ربما، لكنني لم أكن قط جاداً كما أنا الآن».

أحنى رأسه يعانقها مرة أخرى.

ـ أخبريني أنك أيضاً تريدينني.

تمتم بذلك وهو يرفع رأسه ويحدق في عينيها، كان صوته أقرب الى الزمجرة، مترافقاً مع الرعد في الخارج، مخترقاً جو الليل.

لم تستطع أن تتكلم والرجفة في داخلها. كلمة «تريده» هي أكثر اعتدالاً من ذلك الشعور الذي بعثه فيها.

عبس وأوشك أن يبتعد عنها: «زاوي، أخبريني بأنني لا أتخيّل كل هذا. حتماً، لا يمكنك أن تعانقينني بذلك الشكل من دون أن تشعري بما أشعر به».

عند ذلك ابتسمت ورفعت يدها تلامس خده وهمست برقة: «أنت لا تتخيّل كل هذا».

اشتبكت أعينهما لحظة بحميمية بالغة، ثم أحنى رأسه معانقاً إياها مرة أخرى. وتأوهت عندما شعرت مستغربة بأن كل تعقّل قد فارقها.

زمجرة أخرى للرعد كان هو الصوت الوحيد بينهما، ثم انهمر المطر بشكل موسيقي على سطح الإصطبل المنبسط.

أخذ لهب المصباح يتراقص عندما مرّ به تيار هواء، وتحركت الجياد بضيق خلفهما.

جلس كالوم وأخذ ينظر إليها. كيف يتقرّب منها وهو لم يكنِ صادقاً معها كلياً؟ ألا يُعتبر ذلك الكذب أعنف وأكثر ضرراً إذا تابع تصرفه هذا معها الآن؟

رفع يده يدسها في شعره. لم يشأ أن يفكر في هذا، لكن مبادئه استيقظت فجأة ولن يستطيع أن يتابع إلا بعد أن يخبرها بالحقيقة.

كان المطر الآن ينهمر بشدة على المبنى محدثاً ضجة قوية.

تمتم يقول: «يجب أن نعود الى الداخل».

جلست وشعرها متناثر بفوضى بالغة حول كتفيها. بدت أشبه بعروس البحر. وجاهد للسيطرة على نفسه كيلا يمد يده ليلمسها مرة أخرى.

لاحظ ارتجاف يديها وهي تقف: «نعم، الحق معك».

لم تنظر إليه وهي تقول هذا. كانت مضطربة، استطاع أن يلاحظ ذلك في صوتها، فلم يستغربه.

ـ زاوي، ما زلت أريدك. رأيت فقط أنّ علينا أن نأخذ الأمور...

همد صوته بعد أن تعالى صوت الرعد، مما جعل الحيوانات تتحرك بقلق.

وقف كالوم وسار ليطمئن على الحيوانات. وعندما عاد، كان باب الإصطبل مفتوحاً وزاوي قد رحلت، راكضة تحت المطر نحو أنوار المنزل.

***

١٠ ـ الوجه الآخر للحب

كانت زاوي في المطبخ تجفف نفسها بمنشفة حين لحق بها كالوم.

سألها بقلق بالغ: «هل أنت بخير؟».

ـ طبعاً أنا بخير.

لم تستطع أن تنظر إليه، وأن تحمل نفسها على لقاء عينيه. أحست به يتقدم نحوها فشعرت بأنفاسها تتوقف في حلقها واستطاعت أن تقول بوقاحة: «ولماذا لا أكون كذلك؟».

ـ لأننا بينما كنا منجرفين وراء مشاعرنا إذ بنا...

فأكملت كلامه: «وفجأة، ارتدّ إلينا عقلنا. لكنني مسرورة لأن هذا حدث... صدقني أنا كذلك».

وأخذت تفرك شعرها بعنف وغضب، غير واثقة مما إذا غضبت لأنه تركها، أم لأنها كانت تعني حقاً ما قالت: «كنت مجنونة. لحظة جنون».

أكدت لنفسها بحرارة، إنه كان جنوناً طبعاً.

فقال بتسلية كسول: «من تحاولين أن تقنعي، نفسك أم أنا؟».

رفعت بصرها إليه بحدة، ثم تمنت لو أنها لم تفعل هذا فعندما تقابلت أعينهما عصف بها قلبها. كيف يقف هناك بكل هذا الهدوء والبرودة وعدم الاكتراث و... بكل هذه الوسامة، في الوقت الذي يغلي فيه جسدها ومشاعرها وتعتريها الفوضى والتشوش؟

قالت بحدة: «أنا لا أحاول أن أقنع أحداً. أنا أعرض واقعاً فقط».

ـ ربما كانت لحظة جنون، لكنه جنون رائع.

وانتقلت عيناه من وجهها الى قوامها، وتمتم يقول: «ما زلت أريدك يا زاوي».

سقطت المنشفة من يدها على الأرض: «كفى، لن أصغي الى هذا».

وارتجف صوتها ورفعت يديها تسد أذنيها عن سماعه. اقترب منها وأمسك بيديها ينزلهما، ويقول بوضوح وصوت قاطع: «ما زلت أريدك».

وشعرت فجأة بالتشوش والضعف، ثم أحنى رأسه وعانقها مرة أخرى. رقة ذلك العناق نسفت كل تفكير لديها. شعرت بيديه تضمانها إليه وبصدرها يؤلمها، فأخذت تعانقه بحب متجاوبة معه.

تمتم يقول: «ما أجملك! يكفي أن أنظر إليك حتى يشتعل كياني...».

وعاد يعانقها من جديد. ومن خلال الضباب الخفيف الذي غشي الواقع، سمعت وقع خطوات إيلين وهي تنزل السلم.

انتزعت نفسها منه بعنف، ولم تعرف ما إذا كان عليها أن تشعر بالرّاحة أم بخيبة الأمل. في الواقع، كانت من الذهول والارتباك بحيث لم تستطع أن تفكر بشكل منطقي على الإطلاق.

ـ هناك قشة على شعرك.

تمتم كالوم بهذا ضاحكاً وهو يزيلها عن شعرها. واحمر وجهها حين التقت نظراتهما. ابتسم وأخذ يمسح قطرات المطر عن خديها بأنامله بحنان لوى قلبها.

إنها تحبه، أدركت هذا فجأة. تحبه بعمق. صدمة هذه الحقيقة سمرّتها مكانها، وأخذت تحدّق إليه بعدم تصديق.

دخلت إيلين الى المطبخ بنشاط، فابتعدت زاوي عن كالوم بسرعة، والتقطت المنشفة عن الأرض وهي تحاول أن تبتسم للمرأة الأخرى.

قالت إيلين: «نام الولدان باركهما الله. لقد تعبا من كل تلك الحماسة».

وضعت زاوي إبريق الشاي على الموقد. وسألت المرأة: «أتريدين كوب شاي يا إيلين؟».

ـ لا، فأنا سأخرج الآن.

جزء من زاوي أراد أن يقول لا، أرجوك إبقي هنا... كوني متنفساً لي أمام هذه المشاعر الغريبة غير الواقعية.

ـ بالمناسبة، جاءتك مكالمة يا زاوي من شخص اسمه ماتيو. طلب أن تتصلي به باكراً صباح غد.

ـ آه، لا بأس.

وشعرت بعيني كالوم تثقبان ظهرها... أم لعل مخيّلتها تصوّر لها ذلك؟

وسألت إيلين بعفوية: «هل أفهم أن الأمور في الإصطبل على ما يرام؟».

انتظرت زاوي من كالوم أن يجيب، وكانت من التركيز على جوابه الى درجة انزلق معها كوب خزفي من يدها فتحطم على الأرض الحجرية.

قال كالوم بهدوء وهو ينحني ليلتقط قطع الخزف: «نعم، كل شيء على ما يرام يا إيلين. المهرة المولودة رائعة. أتريدين أن تلقي نظرة عليها قبل أن تذهبي؟».

كيف بإمكان كالوم التصرف بمثل هذا الهدوء؟ وكأن شيئاً لم يحدث؟ ربما لم يكن هذا يعني شيئاً إليه.

شعرت فجأة بأنها تريد أن تنفرد بنفسها وتفكر. لعلها لا تحب كالوم، ولعل شعورها نحوه مجرد افتتان.

ومع ذلك، ما إن التفت إليها وتقابلت أعينهما وعادت تتذكر ما حلّ بقلبها حتى عرفت أن الأمر حقيقة. طبعاً هي تحبه، وإلا ما كانت لتتجاوب معه بهذا الشكل.

سألتها إيلين فجأة: «هل أنت بخير يا زاوي؟».

وحامت عيناها على وجه الفتاة الشاحب بقلق.

فابتسمت زاوي: «نعم، بأحسن حال».

ـ كانت حفلتك رائعة، وقد استمتعت أليس تماماً.

شعرت زاوي وكأن تلك الحفلة حدثت على كوكب آخر، وأنها أصبحت بعيدة عنها تماماً.

وتابعت إيلين: «وأعجبني ما فعلته في الردهة».

ـ الردهة.

ـ نعم، فقد غيّرت ترتيب المقاعد فأصبح منظرها أفضل.

هذا الحديث الطبيعي بدا لها غير حقيقي. نظرت إلى كالوم ثم تمنت لو أنها لم تفعل.

بماذا كان يفكر؟ هل مظهرها فوضوي للغاية؟ شعرها مشعث وثيابها مبتلة. وانكمشت بمذلة.

قال كالوم فجأة لأمه: «سأصحبك الى البيت بنفسي، يا إيلين. دعي سيارتك هنا وسآخذها إليك صباحاً».

والتفت ينظر من النافذة. كان المطر ينهمر كالسيل، والبرق ينير السماء.

ـ لا تكن سخيفاً يا كالوم. سأكون بخير...

قاطعها بحزم: «لا، لن تكوني كذلك».

رفعت إيلين حاجبيها لزاوي بعد أن أصبحتا وحدهما: «إنه يصنع من الحبة قبة أحياناً».

ـ حسناً، الجوّ عاصف جداً، وأظن أن الطرقات غارقة بمياه المطر.

قالت زاوي هذا برقة بالغة، فهزت إيلين رأسها وهي تقفل أزرار معطفها: «كما كنت أقول، يا زاوي الأثاث يبدو جميلاً جداً بهذا الشكل. والآن، إذا أمكنك أن تقنعي كالوم بأن الردهة بحاجة الى إعادة طلاء، تكونين قد قمت بمعجزة».

هزت زاوي رأسها: «ليس هذا من إختصاصي فأنا هنا فقط لرعاية الولدين وتنظيف المكان، لا لكي أطلب منه طلاء البيت».

نظرت إليها إيلين مازحة: «كلام فارغ. هل تظنينني ساذجة؟».

ـ العفو؟

حاولت زاوي ألا تدع وجهها يحمرّ... هل لاحظت إيلين أن هناك شيئاً ما بينها وبين كالوم؟

هزت إيلين رأسها وتقدمت تربت على يد زاوي: «جربي أن تحدثيه عن الطلاء. سيسمع منك».

ابتسمت زاوي ابتسامة جانبية: «لا أدري من أين أتيت بهذه الفكرة».

ـ إن لك شخصية جيدة يا زاوي. منذ حضورك عاد هذا المنزل بيتاً حقيقياً.

جعلتهما حركة عند الباب تلتفتان. كان كالوم يقف عنده حاملاً المفاتيح.

تساءلت زاوي منذ متى وهو واقف يستمع؟ وشعرت بضيق بالغ. سيظن أنها تتآمر مع أمه بل قد يظنها تستغل ما يحصل بينها وبينه.

عناق قصير، ثم تبدأ الحديث عن إعادة طلاء بيته واستلام زمام حياته.

قال بحزم: «أنا جاهز يا إيلين».

نعم، لقد ظن ذلك فعلاً. عرفت ذلك للتوّ عندما سمعت تلك النبرة الجادة في صوته.

حالما انغلق الباب خلفهما، نسيت زاوي تظاهرها بإعداد الشاي وركضت الى غرفتها.

وقفت أمام غرفة أليس فإذا الطفلة مغطاة جيداً، ودميتها المصنوعة من الخرق بجانبها. وكان كايل أيضاً مستغرقاً في النوم وذراعاه خارج الغطاء ووجهه متوهج.

صورتها في المرآة لم تطمئنها. بدت كمتشرد لاجئ من العاصفة. وبسرعة خلعت ملابسها وذهبت إلى الحمام. الماء الدافىء على جسدها أعاد إليها بعض رجاحة عقلها.

لا بأس، إنها تحب كالوم، وحاولت بصبر أن تتقبل ما كان يواجهها بوضوح منذ أيام. فهمت لماذا كان يتصرف جسدها بهذه الغرابة كلما لمسها ولو مصادفة. وفهمت غيرتها من سالي. اسم المرأة نفسه أعاد الخشية إلى

نفسها. ما هو شعور كالوم نحوها حقاً؟

خرجت من تحت الدوش ونشفت جسدها بسرعة. لن تفكر في سالي، بل ستحاول التفكير بما ستفعله لاحقاً. عادت الى غرفتها وجلست الى منضدة الزينة لتجفف شعرها.

كانت قد انتهت تقريباً عندما سمعت وقع خطوات كالوم في الردهة. وفجأة شعرت بفمها يجف وخفقات قلبها تتسارع، فخاطبت نفسها باستياء بأنها تتصرف كفتاة مراهقة حقاً. فما هو سوى رجل كأي رجل آخر.

نثرت على نفسها بعض العطر، ثم جلست تنتظر.

تساءلت ما الذي تنتظره؟ وماذا تريد؟

سمعت صوت الدوش في الحمام، ثم رنين جرس الهاتف في الردهة.

عبست ثم نهضت ونزلت لتجيب.

كانت سالي التي جاء صوتها جافاً عديم المودة وهي تقول:

ـ هل لك أن تخبريه أن العشاء يوم الجمعة...؟

ـ انتظري قليلاً.

ووضعت زاوي السماعة فجأة وعادت الى الطابق الأعلى لتنقر على باب الحمام: «صاحبتك على الهاتف».

بدا في العينين السوداوين لمعان تسلية وهما تشتبكان بعينيها: «ومن عسى تلك أن تكون؟».

قالت بحدة: «لا تدّعي البلاهة يا كالوم. أنت تعلم أنني أتحدث عن سالي. وبما أننا نتحدث عنها، أحب أن أخبرك بأنك وغد حقيقي، إذ تخرج معها ثم تعود إليّ».

عند ذلك ارتفع حاجباه: «وماذا بالنسبة إليك وإلى ماتيو؟ أم أن السيد «ديفاين» لا اعتبار له؟».

قال هذا بلهجة ساخرة مطاطة.

فردت غاضبة: «دع فقط ماتيو خارج هذا الأمر».

سألها بهدوء: «لماذا؟».

ـ لأن لا شأن له بهذا.

ـ ولكن هذا غير صحيح، أليس كذلك؟ ألست منافقة قليلاً عندما تتهمينني بسالي بينما لديك صديق ينتظرك في لندن؟

قال هذا بهدوء يثير الأعصاب، فردت بصوت يرتجف: «اعلم أنّ ماتيو ليس صاحباً حقيقياً. إنه مجرد صديق».

ابتسم: «أحقاً؟».

ـ نعم حقاً. وهكذا يمكنك أن تكفّ عن تخميناتك الرخيصة. وأريد منك أن تعلم أن ماتيو على الأقل صادق مع نسائه عندما يخرج معهن.

سألها بجفاء: «وكيف تعلمين هذا؟ هل لديك كرة بلورية؟».

ضاقت عيناها وقالت فجأة غاضبة: «أتعلم أنني لا أراك شخصاً جيداً؟».

ـ لم يكن هذا ما أخبرتني به عندما عانقتك منذ فترة.

تراجعت الى الخلف تكبح رغبة مفاجئة في أن تصفعه على وجهه. ما الذي حدث لها؟ لقد أعماها الغضب، ثم عادت تقول: «صاحبتك تنتظرك. وقبل أن أنسى، سأرحل من هنا قبل الموعد الذي اتفقنا عليه».

لم تكن تنوي أن تقول هذا. فقد انطلقت الكلمات من فمها بطيش من وحي هذا الخصام.

ـ ماذا؟

رأت عينيه السوداوين تتسعان فشعرت بشماتة غريبة.

ـ لا يمكنك أن ترحلي. لدينا اتفاقية.

ـ أنا لم أوقّع شيئاً.

وتركته عائدة الى غرفتها هي تتابع: «سأرحل في الصباح الباكر».

عادت تجلس الى منضدة الزينة. لماذا فعلت هذا؟ إنها لا تريد أن ترحل حقاً. ومن الردهة، كانت تسمع تمتمات كالوم الخافتة في الهاتف. وفجأة، أدركت لماذا أرادت الرحيل فجأة غداً. إنها حماية النفس من الضرر، لأن الغيرة من سالي تقتلها.

كالوم يخرج مع سالي. ومن الصواب أن ترحل هي. فأن تحبه وتعيش معه تحت السقف نفسه، هو وضع لا يُطاق ولا يمكن تبريره. فإذا لم ترحل بسرعة ستفقد آخر ذرة من كرامتها وكبريائها.

سمعت نقراً خافتاً على بابها توترت له أعصابها.

ـ ابتعد من هنا.

صاحت بذلك محاولة البقاء قوية. وبدلاً من أن يمتثل كالوم لأمرها فتح الباب ودخل.

لاحظت أنه ارتدى بنطلوناً وقميصاً لم يقفله بشكل صائب. أشاحت بوجهها وتشاغلت عنه، قائلة بجفاء: «قلت لك أن تبتعد من هنا».

قال بهدوء: «لا أريد أن أبتعد من هنا. ولا أريد منك الابتعاد من هنا».

رفعت فرشاة الشعر وأخذت تسرّح شعرها، لكن انتباهها كان مركزاً على كالوم وحده. كانت تراه في المرآة وراقبته بحذر وهو يقترب منها.

ـ أراهن على أن صاحبتك لن يسرها جداً سماع هذا، وخصوصاً بعد الخصام الذي حدث بيننا هذا المساء. ألم تتصل بك الآن لتخبرك بأن تطردني؟

قال ساخطاً: «لا! بالتأكيد لم تتصل بي لذلك، ولا شأن لها بهذا».

نظرت إليه بريبة، وتابعت تمشيط شعرها.

اقترب منها ومال عليها يأخذ الفرشاة من يدها. احتكاكه بها جعلها تبتعد عنه فجأة وكأنها احترقت.

وضع الفرشاة على المنضدة بهدوء، ثم وضع يديه على كتفيها وأدارها إليه لتواجهه، ثم جلس القرفصاء فالتقت أعينهما على مستوى واحد.

قال وهو ينظر إليها بثبات: «أرجوك يا زاوي، لا ترحلي غداً».

سألته وقد قفز قلبها: «أعطني سبباً واحداً جيداً يجعلني أبقى».

ـ لأجل هذا...

وانحنى يعانقها برقة مثيرة: «ولأنني أيضاً لا أستطيع العيش من دونك».

أرادت أن تذوب بين ذراعيه، وتعانقه مرة أخرى. لكنها أرغمت نفسها على ألا تفعل هذا: «لا يمكنني أن أكون الشخص الثالث في علاقة ثلاثية إذا كنت ترى سالي...».

هزّ رأسه: «كان موعداً واحداً يا زاوي، وأنا لم أجعلها قط تعتقد أن الأمر يتعدى الصداقة. أقسم لك بذلك».

وأحاط وجهها بيديه برقة، فاضطرّت الى النظر إليه. كان سواد عينيه ملياً باللهفة فمزّق قلبها.

ـ وماذا عن العشاء الذي حدثتك عنه. أليس هذا موعداً آخر؟

ـ كانت تتحدث عن حفلة مدرسية لن أذهب إليها. فأنا لا أهتم بسالي بل أهتم بك فقط. وأريد منك البقاء يا زاوي.

ابتسمت وقد انهارت مقاومتها في موجة من السعادة الخالصة. إنه يريدها حقاً، وهذه الحقيقة أنعشتها بشكل رائع.

وبادلها الابتسام: «إذا بقيت فسيكون علي أن أمنحك ترقية».

ـ ترقيني الى ماذا؟ مصممة ديكور داخلي؟ أم أن لديك مركزاً مختلفاً لي؟

ـ في ذهني مراكز عدّة لك.

ومال مرة أخرى يعانقها. وعندما رفع رأسه كانت خفقات قلبها تتسارع. وتمتمت بصوت أبح: «أخبرني أكثر».

ـ حسناً، المركز الرئيسي طبعاً، هو مركز الحبيب وموضع الثقة.

ومال يختم الكلمات بعناق سريع: «ثم يتبع ذلك، لقب رائع هو (زوجة الأب)».

ابتعدت عنه وقد اتسعت عيناها ذهولاً: «ماذا قلت؟».

قال بهدوء: «أريد أن تتزوجيني يا زاوي».

لم تعرف ماذا تقول، فقد فوجئت.

ـ أعرف أنك بحاجة الى وقت للتفكير، أعرف أنني فاجأتك بهذا الخبر... ولكن، كلما ازداد تفكيري في الأمر، كلما بدا لي منطقياً أكثر. كانت أمي محقة عندما قالت إن هذا المنزل أصبح بيتاً حقيقياً مرة أخرى منذ

حضورك.

وأصبح في صوته ابتسامة واسعة مازحة، ثم مال يعانقها... وعندما رفع رأسه كان قلبها وذهنها في دوار.

أنار البرق الغرفة، وفي الخارج كان هزيم الرعد يمزق الجوّ بعنف: «هنالك تجاذب بيننا يا زاوي. وقد شعرت به منذ تعارفنا. إننا مناسبان لبعضنا البعض».

طوقته بذراعيها وبادلته عناقه. وعندما افترقا سألته: «ومتى قررت ذلك؟».

ضحك: «ماذا؟ إن علينا أن نتزوج؟ منذ عشرين دقيقة تقريباً. عندما قلت إنك سترحلين».

رفعت حاجبيها فعاد يقول: «أنا رجل متهور».

سألته باسمة: «ألم تسمع المثل الذي يقول: «استعجل في الزواج واندم على مهلك؟»».

ـ يمكننا أن نطيل مدة الخطوبة إذا شئت. فما رأيك؟ هل ستفكرين في طلبي هذا بشكل جاد؟.

تمتمت تغيظه: «لا أدري. هل أنت راكع على ركبتيك بشكل صحيح؟».

فضحك: «أنا راكع على الركبتين. سأضع وردة حمراء بين أسناني وأعزف لك على القيثارة إذا جعلك هذا تقبلين».

حامت نظراتها على ملامحه، ورأت الضحك في عينيه، فمدت يدها ولمست وجهه ثم قالت برقة: «سأرضى فأنا أحبك».

تلاشى الضحك من عينيه السوداوين، ومضت لحظة تردد فيها، ثم أضاءت الغرفة سلسلة من البروق التي بدا أنها ترافق خفقات قلبها السريعة بانتظار جوابه.

ـ أنا أحبك يا زاوي.

ابتسمت ومالت إليه تضمه: «في هذه الحالة، يشرفني أن أكون

زوجتك».

عصر يدها: «لقد عنيت ما قلته عن جعلك سعيدة».

أغمضت عينيها وعانقته، ثم ضحكت: «لا أدري ماذا سيقول أبي عندما أقول له إنني سأتزوج...».

أخذ ينظر إليها وقال: «زاوي».

تمتمت بصوت خافت: «سيصاب بسكتة. خاصة وأنه يخطط لأتزوج ذلك العريس الذي جهزه لي. صديقه المليونير سمسار البورصة».

سألها وقد تصلّب صوته: «هل هو كذلك؟ سمسار بورصة؟».

ابتسمت له من خلال نعاسها وتعبها.

ـ لا أدري ما هو تماماً. لم يعد الأمر مهماً الآن، أليس كذلك؟

تنفس بعمق: «لا. ربما سيشعر أبوك بالسرور فقط لأنك لن تتزوجي ماتيو».

ـ لا بد أنك تمزح. إذا كان زواجي ليس فكرته هو، فلن يكون مسروراً.

وأغمضت عينيها وتنهدت: «سيقول: «زاوي. هذا الرجل الذي أعدّه لك سيكون أكثر من يناسبك من الرجال. ثقي بي وتناولي العشاء معه. عند ذلك ستنسين كل شيء عن الرجل الآخر الذي يملأ رأسك بالكلام الفارغ»».

قالت هذا بلهجة أبيها الإرلندية ماذكر كالوم بفرانسيس: «هذا ما قاله عندما جعلته يعتقد أن علاقتي بماتيو جادة».

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ ماذا؟ لماذا جعلته يظنني مغرمة بماتيو؟ حسناً، كان عليّ إما أن أقول له ذلك، وإما أن أرغم نفسي على تناول العشاء مع رجل لا أهتم بمعرفته، بالإضافة إلى ذلك لا أريد أن يعلم أبي شيئاً عن معرضي. وهكذا، جاء تظاهري بأنني جادة بالنسبة إلى ماتيو كتغطية جيدة.

وضحكت: «على كل حال سأتصل بأبي وأخبره بالأمر غداً».

أصبحت ابتسامتها جانبية الآن وهي تزيد من احتضانها له.

قال لها بسرعة: «اسمعي يا زاوي... لا تتصلي به إلا بعد أن تسنح لنا فرصة لنتحدث في هذا الأمر».

تثاءبت: «لا تخف يا كالوم. سيأتي إلينا في النهاية».

ـ نعم، ولكن علينا أن نتحدث قبل أن تتكلمي معه. ولكن الآن سأتركك لتنامي... وغداً علينا أن نتحدث.

ـ عم تريد التحدث؟ ولمَ تريد تأجيل هذا الحديث الى الغد.

قال شارد الذهن: «لأنني أريد أن يكون ذهنك يقظاً كلياً».

من هو الرجل الذي أراد فرانسيس أن يقدمها إليه؟

حاول أن يتذكر حديثه مع فرانسيس كلمة كلمة. لكن ذلك الحديث أصبح ضبابياً الآن نوعاً ما. تذكره يقول شيئاً عن رغبته في توفير الاستقرار لها.

عبس للذكرى. ما كان ينبغي أن تكون له علاقة بمشروع هذا الرجل الجنوني. وماذا عن زاوي؟ عندما ستعرف الحقيقة ستثور غضباً، وهو لن يلومها.

***

١١ ـ لا تقولي وداعاً

استيقظت زاوي متأخرة وتمطت في السرير. كان أول من فكرت فيه هو كالوم فابتسمت لنفسها... السعادة تغني في كيانها. إنها غارقة في الحب، وكالوم هو أروع وأكثر الرجال في العالم وسامة وحساسية. أزاحت الأغطية عنها ونهضت. ستخبره بهذا حالما تغتسل وترتدي ثيابها.

شعرت بخيبة أمل عندما نزلت الى المطبخ فلم تجد كالوم فيه بل ميلي.

ابتسمت زاوي لها ببشاشة: «صباح الخير يا ميلي. كيف حالك؟».

التفتت إليها ميلي بابتسامة عريضة: «بأحسن حال».

ـ هل ذهب كالوم الى العمل؟

ـ نعم، وقد طلب مني أن أخبرك بأنه سيعود عند الغداء.

وكانت تتحرك كالحالمة. وتساءلت عما سيقوله كايل وأليس عندما يسمعان الخبر، وأملت أن يكونا مسرورين، لأنها تريد من كل قلبها أن يصبحوا أسرة سعيدة.

سمعت طرقاً على الباب الأمامي فذهبت ميلي لتفتح. وعندما عادت قالت لها: «إنه العامل الذي سيصلح النافذة».

قالت زاوي ضاحكة: «أحقاً؟».

ضحكت ميلي: «حسناً، إنه في الطابق الأعلى. أرجو أن يتمكن من إصلاح تلك النافذة».

أرادت أن تخبر ميلي خبرها الرائع، لكنها كبحت نفسها. فهي لا تستطيع أن تقول شيئاً قبل أن يعرف الولدان.

سكبت لنفسها كوب شاي آخر وتساءلت عما إذا كان عليها أن تتصل بأبيها. تحولت عيناها الى الهاتف في الردهة، ثم قررت أن ترجئ الأمر. فقد كانت أسعد من أن تفسد الأمور بالجدل والرفض.

لكنها بحاجة الى الاتصال بماتيو، فنظرت الى ساعتها وذهبت الى الردهة. وسرعان ما أجابها: «مرحباً زاوي. كنت انتظر اتصالاً منك، أصبح من الصعب الاتصال بك هذه الأيام».

ـ آسفة فقد كنت مشغولة. هل الأمور على ما يرام؟

ـ كل شيء على ما يرام لكنني بشوق الى رؤيتك الأسبوع القادم. هناك أشياء أخيرة علينا أن نصنّفها.

ـ لا بأس، سأكون موجودة.

كانت الحماسة بادية في صوتها. وتساءلت عما إذا بإمكان كالوم أن يأخذ إجازة لبعض الوقت ويرافقها. فهي تريد منه حقاً أن يشاهد المعرض لتشعر بمساندته المعنوية لها...

سألها ماتيو: «صوتك يدلّ على أنك سعيدة جداً».

ـ نعم، أنا كذلك.

تنفست بعمق ثم قالت بصوت خافت: «لقد قابلت شخصاً».

ـ يبدو الأمر جاداً.

ـ لا يمكن أن يكون جاداً أكثر من ذلك.

تنهد ماتيو: «تعنين أنني فقدت حظي معك».

ضحكت دون أن تأخذ الأمر بجد ولو لحظة.

ـ اسمعي، رأيت أباك الأسبوع الماضي. زارني لكي نتحدث قليلاً.

تأوهت زاوي: «لم يُثقل عليك، أليس كذلك؟».

ـ لا، بل كان بغاية الظرف. تفرج على المعرض واشترى صورة.

ـ هذا مثير للشكوك تماماً. هل أنت واثق من أنه لم يعرض عليك مالاً لكي تتركني وشأني؟

ضحك: «لا، للأسف. لكنه تحدث قليلاً عنك. ولكي أكون صادقاً

معك يا زاوي، شعرت ببعض الأسف لأجله. أظنه مشتاقاً إليك. قال إنه يرجو أن تكوني مسرورة في «كامبريان»».

ـ وهل أخبرته أنت أنني في «كامبريان»؟

ـ لا، فقد كان يعلم.

ـ كيف علم؟ أنا لم أخبره. هذا غير مهم.

عليها حقاً أن تتصل بأبيها... فكرت في ذلك وهي تضع السماعة. ففكرة أن يكون قلقاً عليها، وأن يكون مشتاقاً إليها لوت قلبها. إنها كل ما لديه في هذه الحياة، فهل بإمكانها أن تلومه لخوفه ولهفته عليها؟

وعلى كل حال، كانت من السعادة الآن بحيث أرادت أن تشاركه شعورها.

أوشكت أن تعود فترفع السماعة عندما نزل العامل من الطابق الأعلى وقدم إليها فاتورة الحساب.

نادتها ميلي من المطبخ: «هناك مبلغ من النقود في غرفة كالوم».

ـ لا بأس، لن أتأخر.

وركضت زاوي وفتحت أدراج المكتب وأخذت تبحث بين الأوراق حتى وجدت المحفظة.

كانت على وشك أن تشيح بوجهها عندما لمحت ورقة عليها اسمها. بدا الخط مألوفاً للغاية فأمسكت بها لتقرأها. وعندما فعلت تجمّد جسمها كله واتسعت عيناها بعدم تصديق. كالوم يعرف أباها، وقد قدم له خدمة في إحضارها الى هنا!

صاحت ميلي من أسفل السلم، فلم تستطع زاوي أن تركز أفكارها على كلامها. لأن انتباهها كله انصبّ على الرسالة.

كانت الوظيفة مجرد خداع. وافق كالوم عليها لأن أباها قدم له عقداً مربحاً.

ثم قرأت السطر الذي عطل تفكيرها حقاً.

«أنا أعلم أنك لا تريد زاوي حقاً عندك، ولكن إذا استعملت براعتك

في إقناعها بأن تطيل مدة بقائها لأكثر من أسبوعين، أكون شاكراً جداً».

لم تستطع زاوي أن تمسك الرسالة في يدها بشكل ثابت لأن الغضب أخذ يمزقها. لقد كذب كالوم عليها. خدعها، وهذا لا يُطاق، لكنه حقيقي.

لقد استعمل حقاً براعته ليحملها على البقاء. تذكرت الليلة الماضية وانكمشت على نفسها. أترى كل ذلك كان جزءاً من الكذبة؟ اعترافه بالحب؟ وعرضه الزواج عليها؟

جلست على السرير، بعدما وهنت ساقاها عن حملها. تذكرت أنّ عرضه الزواج عليها جاء بعد أن قالت إنها سترحل.

يا لها من حمقاء، حمقاء كبيرة! لم تستطع أن تصدق كم كانت مخدوعة، أو كم كانت مخطئة بشأن كالوم. لقد جعلها تميل إليه بكل هدوء أعصاب، وكذب عليها بكل قسوة. فكل ما كان يهمه هو إبقاؤها هنا ليحصل على مبلغ مالي كبير من أبيها.

واغرورقت عيناها بدموع الألم فمسحتها بغضب. الرجل الذي أحبته، الرجل الذي ظنته حنوناً مهتماً بها، لم يكن سوى وهم خدّاع. وهو لا يستحق حتى الدموع.

ـ كنت سأخبرك.

جاءها صوت كالوم الهادئ من الناحية الأخرى للغرفة فقفزت مجفلة عن السرير.

حدّقت فيه لحظة، خائفة من أن تنهار وتبكي إذا تكلمت، وهذا سيكون إذلالاً بالغاً لها.

ـ آسف يا زاوي.

كان واقفاً عند الباب بالضبط، ونظره يتنقل من الرسالة التي في يدها إلى التعبير البادي في عينيها.

وأخيراً، شعرت بقليل من القوة فسألته: «أنت آسف؟»

سرّها الغضب البادي في صوتها. لاأثر في صوتها للألم والشعور بالفراغ اللذين ينهشان جسدها، وإنما فقط غضب بالغ العنف.

ـ أنت وغد . . . وغد كبير .

أجفل : «إسمحي لي بأن أشرح الأمر . لقد سبق أن حاولت أن أخبرك . . .»

ـ نعم . حاولت حقاً أن تفعل ما يلزم ، أليس كذلك يا كالوم؟

وهزت الرسالة أمامه تذكره بها : « كم كنت أساوي على كل حال؟ ما هو المبلغ الذي عرضه عليك أبي الغالي؟»

ـ لم يكن الأمر بهذا الشكل . فقد كان فرانسيس قلقاً عليك حقاً .

ـ آه ، أرجوك! بعد هذا سترشّح نفسك لنيل جائزة العطف والرحمة . ستجيد تمثيل دور الصديق المهتم بصديقه؟

كانت في الواقع تقذفه بهذه الكلمات وعيناها تلتهبان : «لقد وثقت بك . آمنت بك» .

واهتز صوتها لحظة وظنت أنها ستفقد قدرتها على التحكم في نفسها .

قال برقة : «لقد أحببتك يا زاوي ، وهذا لم يكن قط جزءاً من الخطة» .

عضت شفتها وسرى الألم في كيانها : «إياك أن تجرؤ على ذكر الحب أمامي . الشيء الوحيد الذي أحببته هو ما عرضه أبي العزيز عليك لكي تبقيني هنا» .

تقدم نحوها خطوة ، فهزت رأسها : «ابق بعيداً عني» .

وانحنت تسحب حقيبة ثياب من تحت السرير وأخذت تلقي فيها بعض الملابس . لم تكن ترى ما تفعل ، فقد كانت عيناها مغرورقتين بالدموع .

أخذ كالوم ينظر إليها لحظة ، ويداه منقبضتان وكأنه يرغم نفسه على ألا يمسك بها ويمنعها من الرحيل بالقوة .

قال بهدوء تام : «أرجو منك أن تصغي إليّ يا زاوي . نعم ، لقد وافقت أباك على مشروعه الجنوني . وقد عرض عليّ عقداً جيداً كحافز لأقبل . ولكن هذا لم يكن السبب الذي جعلني أقبل . لقد كان شديد القلق عليك حقاً ، وقال إن ذلك الرجل ، ديفاين ، هو مخادع إنتهازي ومحتال وغير جاد» .

فانفجرت غاضبة : «منافق! أنت أكبر محتال شاء سوء حظي أن

أعرفه» .

لم يكن لديها فكرة كيف كانت تملأ حقيبة ثيابها . أرادت الهرب منه بأسرع ما يمكنها : «ماذا أردت أن تفعل؟ أن تنتظر حتى يتصل بك ويخبرك بأن كل شيء قد تم ، عندئذ تخبرني أنك قد غيرت رأيك بشأن الزواج؟ ماذا كنت ستقول؟ «آسف يا زاوي ، زواجنا لن ينجح . سررت بمعرفتك؟»» .

ـ لا ، لا طبعاً .

عندئذ ، أمسك بها بشدة وأدارها إليه لتواجهه : «لا أريد منك أن ترحلي يا زاوي . . . ولم أرغب في رحيلك قط فأنا أحبك» .

نظرت بهدوء إلى اليد التي تمسك بها ، وقد اغرورقت عيناها باحتقار هادئ : «أنت تحب أموال أبي ، هذا ما تعنيه» .

عند ذلك تركها ، وبدت الصلابة في عينيه : «أموال أبيك لا تهمني» .

قالت وقد اهتز صوتها : « لا؟ أنت ككل الذين عرفتهم في حياتي ، طمعوا في ما قد يستفيدونه مني» .

هز رأسه : « هذا غير صحيح» .

ـ كفى كذباً عليّ يا كالوم . فقد عرفت لتوّي الحقيقة . لقد قدّم لك أبي اتفاقية مربحة لكي تبقيني هنا أطول مدة ممكنة .

قال بهدوء : « لكنني أحببتك يا زاوي . ومازلت أريدك» .

سمحت لنفسها بالنظر إليه جيداً لحظة . كان وسيماً جداً ، وعيناه السوداوان في منتهى الجد . وهذا ما مزّق قلبها ولكنها هزّت رأسها وأشاحت بوجهها : «إلى جهنم بكلامك عن الحب . شككت دائماً في أولئك المحتالين ، ولكنك ماهر حقاً . . . أشهد لك بهذا . . . فقد خدعتني أي خداع» .

أغلقت حقيبتها بعنف ، وحملتها مع حقيبة يدها وكيس معداتها الموضوع بجانب السرير : « يمكنك أن تلقي ببقية أمتعتي في القمامة» .

واتجهت نحو الباب فوجدته يسدّ طريقها .

ـ لا ترحلي بهذا الشكل يا زاوي . أرجو منك أن تهدئي لنتحدث .

تنفست بعمق : «لا شيء هناك لنتحدث عنه» .

مواجهتها نظراته بثبات وشجاعة، استنفدت كل قواها، وأضافت: «لقد انتهى الأمر يا كالوم. وخدعتك الصغيرة فشلت».

مضت لحظة تردد، ثم ابتعد عن طريقها، فمرت بجانبه مرفوعة الرأس.

ـ ماذا سأقول للولدين؟

أستوقفها هذا السؤال في الممر، فوقفت وظهرها إليه، وهي تغالب دموعها وقالت بصوت مرتجف: «أخبرهما... أخبرهما بأنني... أحبهما. لكن وجودي هنا كان مؤقتاً منذ البداية».

ثم سارت بهدوء وثبات نحو السيارة، خارجة من حياته.

***

١٢ ـ غداً يوم آخر

كان معرض الفنون محتشداً بالناس الذين كانوا متحمسين لهذا الاكتشاف الجديد، اكتشاف هذه الفنانة الرائعة الموهوبة.

أثناء طوافها بين الجموع، سمعت زاوي المديح ورأت العلامات الحمراء على أطر اللوحات مشيرة الى أنها بيعت، ولكنها لم تكن تشعر بشيء.

كان هذا حلمها منذ وقت طويل، وطموح حياتها، لكن عندما وصلت إليه، شعرت بأنه لا يستحق شيئاً. لقد أصبح منسياً أمام ما فقدته.

حاولت طبعاً أن تحدث نفسها بأنها لم تفقد شيئاً. وكيف يخسر المرء شيئاً لم يسبق أن وجده قط؟ ومع ذلك، ظلّ كالوم الأسمر الوسيم ولهجته الرقيقة الحانية تزعج نومها ويقظتها.

«لقد أحببتك يا زاوي، ولم يكن هذا قط جزءاً من الخطة». احتلت كيانها هذه الكلمات... لقد مضى أسبوع على عودتها الى لندن دون أن تستطيع التركيز. التفكير فيه جعلها لا تستطيع أن تأكل. كما أنها لم تجرؤ على التفكير في الولدين. هل افتقداها؟ وماذا قال لهما كالوم عنها؟

هل كايل ينتبه الى دراسته في المدرسة؟ هل كالوم مع سالي الآن؟

هذا التساؤل الأخير آلمها جداً في الحقيقة. ربما كذب عليها حين أخبرها أنه لم يكن يهتم بسالي، وأنه لم يكن جاداً معها... فهو على كل حال قد كذب عليها منذ البداية، وكذبة واحدة تضاف الى كل تلك الأكاذيب لن تزعجه. ربما كان جاداً في علاقته بتلك المرأة، لكنه قلّل من أهمية تلك العلاقة حتى يدفع له أبوها أجره.

www.elromancia.com

كيف أمكنها أن تنخدع بشخص الى هذا الحد؟

وقاطع صوت ماتيو أفكارها: «زاوي، هل أنت واثقة من أنك لن تبيعي اللوحة رقم ثلاثة وعشرون؟».

ـ ماذا؟

فكرر بصبر: «الرقم ثلاثة وعشرون. هناك شارٍ متلهف لشرائها».

نظرت الى البرنامج بين يديها: «الرقم ثلاثة وعشرون أي لوحة هي؟».

ـ إنها آخر لوحاتك وهي صورة «ناحية البحيرة».

وشعرت بقلبها يخفق عالياً: «لا أريد أن أبيع تلك اللوحة».

عضت شفتها السفلى، فهذه صورة مزرعة كالوم وقد أنهتها بسرعة بعد عودتها الى لندن. وكانت هي العمل الوحيد الذي استطاعت تنفيذه. إنها لا تريد أن تبيعها. ليس الآن على كل حال.

هزت رأسها لماتيو: «أسفة. أخبر ذلك الشخص أنها ليست للبيع».

بدت خيبة الأمل على ماتيو، لكنه هز كتفيه: «ابتهجي يا زاوي. إن نجاحك ضخم، وهذا ما بذلت جهدك لأجله».

قالت بفتور: «أعلم هذا».

سألها بصوت خافت: «ألم تتصالحي مع أبيك بعد؟».

هزّت رأسها: «لا أدري إن كنت سأتحدث إليه مرة أخرى في حياتي».

ـ أنت لا تعنين ذلك.

منذ يومين اتصلت بأبيها وتشاجرت معه. لم تستطع أن تصدق مبلغ هدوئه وهو يرد عليها. فقد قال بدون اكتراث: «إذن فقد انسجمتما أنت وكالوم؟ هذا ما ظننته. هذا عظيم يا عزيزتي. اسمعي، عليّ أن أسرع لأنني آخذ دروساً في الرقص، ولا أريد أن أتأخر».

حياتها أصبحت خراباً وهو يأخذ دروساً في الرقص! حالته تسوء حقاً.

نظر ماتيو إليها. كانت ترتدي ثوباً أحمر طويلاً منحها جمالاً سماوياً. فقدت الكثير من وزنها مؤخراً، فهي تبدو الآن هشة نوعاً ما وكأنها على وشك أن تنكسر كدمية من الخزف الصيني.

وكان ماتيو قد بدأ يشعر بقلق عليها.

قال لها فجأة: «اسمعي، لماذا لا نخرج معاً للعشاء؟».

التفتت لتجيب، وإذا بعينها تلتقيان بعيني كالوم في آخر الغرفة، فجمدتها الصدمة لحظة.

قطب ماتيو جبينه وهو يرى شحوب وجهها وكأنها رأت شبحاً.

ـ زاوي.

عادت تنظر إليه، وعيناها تحملقان بذعر: «ما الذي يفعله هنا يا ماتيو؟ لا أريد أن أراه. لا أريد أن أتحدث إليه».

نظر ماتيو حوله فرأى رجلاً طويلاً وسيماً في بذلة داكنة اللون... كان يشق طريقه بين الجموع، وقد بان عليه التصميم. فقال لها: «أظنك ستضطرين الى ذلك. إنه الشخص الذي يريد شراء لوحة المزرعة».

لوت زاوي شفتيها استخفافاً، ظنت أن غضبها قد همد، أو أن الحزن أغرقه، وإذا بها تدهش وهي تراه ما يزال كما كان قوة وعنفاً. لا حقّ لكالوم بأن يكون هنا فهو دجّال. وإذا ظنّ أن بإمكانه تسوية الأمور بمحاولة شراء اللوحة، فسوف يغيّر رأيه.

تمتمت تقول وهي تنظر الى ماتيو متوسلة: «ماتيو، ضع ذراعك حولي. ساعدني على التخلص منه».

قطب ماتيو جبينه: «هل أنت واثقة؟ ربما عليكما، أنتما الإثنين أن تتحدثا على انفراد. الغرفة الخلفية خالية».

ـ لا، إياك أن تتركني وحدي معه مهما كانت الظروف.

لم يجد ماتيو وقتاً ليجيب إذ وجد كالوم بجانب مرفقه تقريباً.

قال كالوم ببطء دون أن يرفع عينيه عن وجهها: «مرحباً يا زاوي تهاني. المعرض رائع».

لم تجبه زاوي. ومضت لحظة ساد فيها صمت غريب.

اخترق ماتيو الصمت قائلاً وهو يضع ذراعه حول خصر زاوي يطمئنها: «كنت أسأل زاوي لتوّي عن اللوحة التي أبديت اهتمامك بها،

لكنني آسف لأنها. . . ».

قاطعته زاوي بصوت بارد، لأنها لا تريد أن يعلم كالوم أن بينها وبين تلك الصورة أي ارتباط عاطفي: «لقد بيعت».

لاحظ كالوم ذاهلاً، أن ذراع الرجل الآخر أحاطت بخصر زاوي، فضاقت عيناه وهما تعودان الى وجهها: «بيعت؟ هل أنت واثقة؟ ليس عليها علامة حمراء».

هزت رأسها وسألته بصوت ثقيل: «ما الذي تفعله هنا يا كالوم؟».

ـ أنا في عمل لم ينته بعد.

قال هذا وعيناه في عينيها بنظرة ثابتة جادة جعلت أنفاسها تضطرب، والارتباك يتملكها.

سلخت عينيها عنه، لأنها لا تريد الانجرار الى ذلك الشرك من الرغبة مرة أخرى: «أنا مشغولة يا كالوم. ليس لدي وقت لخداعك وأكاذيبك. والآن، إذا سمحت أريد أن أقوم بجولة».

وعندما حاولت أن تبتعد عنه أمسك بذراعها: «أريد أن أتحدث إليك يا زاوي. . . وحدنا».

قال هذا بعزم، وهو ينظر الى ماتيو.

تردد ماتيو. لكن المنطق حدّثه بألا يجادل. نظر الى زاوي فضاقت عيناها تحذّره. ثم فكر في مقدار تعاستها منذ عودتها. فقال بلطف: «أنتما بحاجة الى أن تتفاهما. لماذا لا تذهبان الى الغرفة الخلفية وتحظيان ببعض الانفراد؟».

قالت زاوي له بحدة: «ماتيو لا أريد أن. . .».

ـ أشكرك يا ماتيو.

قال له كالوم هذا وأمسك بذراعها وجرها معه نحو الغرفة التي أشار إليها ماتيو. وما إن دخلا الغرفة وأغلق الباب خلفهما حتى التفتت إليه ثائرة: «إنك وقح جريء، يا كالوم لانغستن. أما قلت لك كل ما عندي؟ والآن ابتعد عن طريقي ودعني أتابع حياتي».

وقف كالوم أمام الباب عاقداً ذراعيه على صدره: «حسناً، ربما قلت أنت كل ما تريدينه، ولكن ما زال لدي أشياء أريد أن أقولها لك. . .».

ضربت الأرض بفروغ صبر ونظرت حولها تبحث عن وسيلة للهرب.

قال بصوت جاد عميق: «أولاً، أنا آسف».

لم تنظر إليه: «سبق أن قلت هذا وأنا لا أصدقك».

ـ حسناً، سواء صدقتني أم لا، فهذه هي الحقيقة. لم أقصد أن أؤذيك. لقد توسّل أبوك إليّ لكي أساعده، فشعرت بالعطف عليه.

لم تجب وبقيت نظراتها بعيدة عنه وكأن السأم يتملكها.

ـ زاوي، لقد أخبرني بأنه مريض جداً. أتدركين أنه يموت؟

خفت صوت كالوم برقة زائدة وهو يحاول أن يخبرها: «كيف يمكنني أن أرفض طلب رجل يموت؟».

أطلقت ضحكة جافة: «ذلك الحصان العجوز مرة أخرى».

فوجيء كالوم. لقد فكر في الأمر كثيراً قبل أن يخبرها بهذا. ظن أنها ستُصدم، لكنها بدلاً من ذلك، تقف هناك وتسخر منه بخشونة.

ـ أبي لا يعاني من شيء يا كالوم.

ولوت شفتيها ساخرة.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لأن هذا ما يقوله كلما ظن أنه لن يحصل على ما يريد. منذ سنوات وهو يقول ذلك. هل قال لك إنه سيموت؟

قطب جبينه: «حسناً. . . قال إنه ليس على ما يرام. . .».

رفعت حاجبيها: «والآن، دعني أتكهن. ما قاله بالضبط هو «لم يبق أمامي وقت طويل. . .»».

ـ نعم، هذا ما قاله.

هزّت رأسها: «هو يعني أنه لم يبقَ أمامه وقت طويل يضيّعه في إقناعك. وهكذا سيلجأ الى استدرار العطف، وهذا ينجح معه دوماً. لقد اتبع هذه الطريقة طوال السنوات الخمس عشرة الماضية».

بدا كالوم من الذهول ما جعلها للحظة تشعر بالشفقة عليه. كان أبوها مخادعاً كبيراً إذا أراد الوصول الى غايته. ثم تذكرت الرسالة وذكر الاتفاقية المربحة، فأرغمت نفسها على عدم الاستسلام للضعف. الأحمق وحده ينخدع مرتين. لعل أباها خدع كالوم، لكن دوافع كالوم لم تكن غير أنانية.

سألته وهي تنظر الى ساعتها: «هل انتهى الحديث؟».

قال غاضباً: «لا، لم ينته هذا الموضوع اللعين بعد. أنت لست الوحيدة المخدوعة. فقد خُدعت أنا مثلك بالرجل الذي كنت أحترمه وأجلّه. لم يكن لدي سبب يجعلني أشك في حقيقة ما قاله فرانسيس، وقد وافقت على أن أساعده على هذا الأساس. أعرف أنه كان عليّ أن أبوح لك بالحقيقة، ولكن حين أدركت أن الأمور ليست بالضبط كما وصفها أبوك، كنت قد غرقت في الحب، وتملكني الخوف من أن أفقدك يا زاوي...».

جفّ فمها، ونظرت بذعر الى الباب خلفه. فعندما أخذ يتكلم بهذا الشكل، وهنت عزيمتها.

ـ أحبك يا زاوي. أحبك الى حد الألم.

وكان صوته عميقاً أجش، فلم تجبه. لم تستطع أن تجيبه. لم تكن تريد أن تبكي. لم تشأ أن تلين... حدثت نفسها بأن السبب الوحيد الذي جعل كالوم يقول إنه يحبها هو أنها أظهرت بوضوح أن هذا ما تريد أن تسمعه.

سألته ساخرة: «وماذا بالنسبة إلى سالي؟ هل تحبها هي أيضاً؟».

هزّ رأسه: «لقد أخبرتك يا زاوي. سالي لا تعني لي شيئاً، لقد أوضحت لها أني اهتم بامرأة أخرى».

ثم نظر إليها بثبات: «أنت التي أحبها يا زاوي. لم أظن قط بعد موت هيلين أنني سأقول هذه الكلمات لامرأة مرة أخرى. لكنني أعنيها من كل قلبي. لقد أنرت حياتي، وبعثت فيها الحب والدفء والمرح. لقد جعلت حياتي... وحياة ولديّ... كاملة مرة أخرى».

شعرت بعينيها تتندیان بالدموع. أرادت أن تخبره بأنها تحبه هي أيضاً. لكنها كانت خائفة من أن تكون مخطئة، خائفة من أن تثق به مرة أخرى.

ـ عندما طلبت منك أن تكوني زوجتي، كنت أعني ذلك من أعماق قلبي. كان هذا هو الأمر الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه بوضوح حينذاك. أعرف أنه كان عليّ أن أخبرك بالحقيقة، لكنني كنت أريدك، وأريد موافقتك على الزواج بي.

كان صوته عميقاً مخلصاً وهو يقول كل هذا. والتفتت الى عينيه فصعب عليها أن تشك في كلامه. إنه يقول الحقيقة... إنه يحبها. وشعرت بالجدران التي تتحصن خلفها تنهار. إنها تحبه حباً جماً والتفكير في الحياة من دونه لا يطاق.

سألته مترددة: «كيف.. كيف حال الطفلين؟».

ـ الولدان تعسان. إنهما يفتقدانك. لكن رحيلك قد آلم كايل بالذات كثيراً. لم أدرك حتى تلك اللحظة، الى أي حد يفتقد أماً في حياته».

عضت زواي شفتيها واغرورقت عيناها بالدموع. فقال بهدوء: «أنا أفتقدك يا زاوي. سأقوم بأي شيء يصلح الأمور.. سأبيع المزرعة وأنتقل الى لندن..».

هزّت رأسها: «لا يمكنك أن تفعل هذا».

ـ سأفعل إذا كان هذا يسعدك.

ـ هذا لا يجعلني سعيدة.

تعالى طرق على الباب وجاء صوت ماثيو: «آسف على المقاطعة، يا زاوي، لكنني بحاجة إليك هنا».

ـ سآتي بعد لحظة يا ماثيو.

حدقت لحظة في عيني كالوم وهي تشعر بخفقات قلبها تتسارع: «هناك شيء أريد أن أخبرك به».

ـ ما هو؟

ـ لأول مرة منذ سنوات، سأفرح قلب أبي وأفعل ما يريده.

ـ وما هو؟

ـ سأتزوج ذلك الرجل الذي حرص على أن يعرفني به.

جحظت عينا كالوم. وأخبرتها الصدمة التي بدت على وجهه أنه لم يكن لديه فكرة عما تتحدث عنه.

ـ لماذا ستفعلين ذلك؟ لا تكوني مجنونة.

أثخنت صوته المشاعر وهو يقول ذلك.

اقتربت منه قائلة: «لأنني مغرمة به».

ـ عدت إلى لندن منذ أسبوع فقط. فكيف استطعت الوقوع في غرام رجل غريب؟

ونظرت في عينيه بابتسامة ممتزجة بدموعها: «يمكنه أن يكون غريباً أحياناً... وبرجه الأسد اللعين مزعج جداً... ولكن...».

قال بغضب: «لا يمكنك أن تفعلي هذا، يا زاوي».

قالت بهدوء: «بل يمكنني. لأنك من أتحدث عنه».

الحيرة التي بدت في عيني كالوم كانت مضحكة، فقالت تشرح الأمر بلطف:

ـ الرجل الذي أراد أبي أن يعرفني به هو أنت. ويبدو أنه لاحظ أننا مناسبان لبعضنا البعض. لم يشأ أن يقترح عليك ذلك بصراحة لأنه ظن انك لن توافق على هذه الفكرة. والآن، ماذا قال أبي بالتحديد؟

وقطبت جبينها: «نعم.. كنت أعلم أن ذلك الرجل اللعين سيكون عنيداً مثلك، وهكذا قدمت بعض الإغراءات لكي أنال ما أريد».

ـ إذن، كان الأمر مزحة خداعة لكي يجمع بيننا.

فأومأت زاوي: «لم يشعر بأي ندم عندما ثرت في وجهه...».

وسكتت عندما أدرك كالوم فجأة ما كانت تخبره به: «انتظري لحظة... هل قلت لتوّك إنك ستمضين في هذا الأمر؟ وإنك ستتزوجينني؟».

ابتسمت وأومأت برأسها: «ربما من الأسهل أن أذعن... لأنني

وقعت في الغرام...».

وقبل ان تنتهي جملتها كان كالوم قد أخذها بين ذراعيه يعانقها فبادلته عناقه واضعة قلبها وروحها في ذلك.

وعندما أطلقها، كانت ترتجف لعنف المشاعر التي تملكتها. ثم سألها بصوت أبح وهو ينظر في أعماق عينيها: «إذن، أنت تحبين هذا الشاب إلى درجة تدفعك إلى قضاء حياتك معه؟».

همست: «أنا أحبك يا كالوم، أحببتك منذ رأيتك لأول مرة».

ابتسم وأزاح شعرها عن وجهها، محدّقاً فيها وكأنه يعبّ من ملامحها، وابتسامتها. ثم عانقها مرة أخرى.

قال وهو يهز رأسه: «ظننت أنني فقدتك حقاً. ولا أستطيع أن أصف لك مدى ألمي حينذاك. بقيت أحدث نفسي بأن أمنحك وقتاً، عدة أيام حتى تهدئي، ثم تتفهمين الأمر.. لكنني خشيت ألا تصفحي عني أبداً. عذّبني مجرد التفكير في عدم قبولك بأن تمنحيني فرصة أخرى».

ـ أنا نفسي عانيت العذاب منذ عثرت على تلك الرسالة.

تجهم وجهه: «لكنك ستصفحين عني؟».

أومأت وقالت بابتسامة عريضة: «هل ستدعو ذلك العجوز إلى العرس؟».

ابتسم ورفع حاجباً: «علينا أن نفعل ذلك... فالفكرة فكرته منذ البداية».

قالت بصوت أبح: «سنتحدث في التفاصيل فيما بعد».

* * *